الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة سعيدة "الدكتور. مولاي الطاهر"
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللّغة والأدب العربي

التخصص: نقد عربي قديم

مذكرة مقدّمة لنيل شهاة الماستر في اللّغة العربية وآدابها

موسومة بـ:

التثاقف الأدبي والنقدي بين العرب والغرب خلال العصر الوسيط_قراءة في مرجعيات والوسائط _

من إعداد الطالبة:

بوموس رقية

بإشراف الدكتور :

الطاهر هاشمي

لجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور:	عبد القادر عبو	رئيسا
الدكتور:	الطاهر هاشمي	مشرفا ومقررا
الدكتور:	شعبان بهلول	عضوا مناقشاً

السنة الجامعية: 1438-1439هـ/2017-2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعـــــاء

﴿سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم﴾

ـــالآية:32 من سورة البقرةـــ

ـ"اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها ومولاها، اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع، ودعوة لا يُستجابُ لها".

ـ"اللّهم إني أعوذ بك من شر ما علمت، وشر ما لم أعلم".

ـ"اللّهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوّل عافيتك، وفُجَاءَةِ نقمتك وجميع سَخَطِكَ، اللّهم اكفنا بحلالك عن حرامك واغننا بفضلك عمَّن سواك".

ـ"اللّهم لك الحمد ولك الشكر إنّك أنت العزيز العليم".

شكـــر وعرفان

قال الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم "من لم يشكر الناس لم يشكر الله" ومن هذا المنطلق أشكر الله عز وجل على ما منحني إياه من الصبر والثبات لإتمام هذا العمل المتواضع

كما أتقدّم بجزيل الشكر والامتنان لأستاذي المحترم_ **الطاهر هاشمي** _الذي حمل معي أعباء هذا البحث طوال مدّة إنجازه، فالشكر موصول له على ما قرأ وصحّح وقوّم ونَقد كما أتمنى له دوام الصّحة والعافية، فقد كان نعم السند ونعم النصير

كما أتقدّم بخالص الشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة على تلبيتهم الدعوة لمناقشة وإثراء هذا البحث

كما لا أنسى أيضاً أن أشكر جميع أساتذة و أعضاء قسم اللغة والأدب العربي لكليّة الآداب واللّغات والفنون واللّغات بجامعة **الدكتور_الطاهر مولاي_بسعيدة**

وفي الأخير أشكر أهلي وأحبابي وكلّ من ساهم في إنجاز هذا البحث بصغيرة أو كبيرة بسطر أو بكلمة أو بحرف، من قريب و من بعيد

وفي الأخير أحمد الله سبحانه وتعالى الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

إهـــــداء

الحمد للّه وكفى والصّلاة والسّلام على المصطفى_صلّى الله عليه وسلّم_

أهدي ثمرة جهدي إلى التي حملتني وهنا على وهنٍ وإلى من سقتني لبن التوحيد والإيمان، إلى التي في حضنها الأمان وفي صدرها الحنان وكلامها غناء وهمسها شفاء وعطفها دواء "أمي الحبيبة" أطال الله في عمرها

إلى الذي ربّاني وعلّمني بأنَّ العلم عبادة والتفوّق سيادة وإلى من هداني إلى سبيل العلم "أبي العزيز" أطال الله في عمره

إلى من قاسموني رحم أمّي وترعرعت معهم في كنف الحبّ والودِّ والوفاء

"إخوتي وأخواتي الأعزّاء"

إلى كلّ صديقاتي وأصدقائي وكل من أعرفه ويعرفني من قريب أو من بعيد

إلى كلّ من كان لي سنداً وسار معي في طريق الخير والنّجاح

مقدمة

يعتبر موضوع المثاقفة من المواضيع الحديثة في النقد العربي الحديث والمعاصر، فقد كان الحديث قبلها قائما على أشدّه حول الأدب المقارن الذي يقارن بين أدبين أو أكثر شريطة أن يختلفا في اللغة والعصر، أمَّا في العصر الحديث فقد أخذت هذه المقارنة مجالاً أوسع، اضمحلّت فيه تلك الشروط التي تحصر عمليّة المقارنة في البحث عن وجوه المشابهات والمباينات، فأصبح التأثّر والتأثير هو الأساس الوحيد في المقارنة وسمّيت هذه العمليّة بالمثاقفة.

لقد لقي مفهوم المثاقفة جدلاً واسعاً في الدراسات العربية الحديثة، فاعتبره البعض غزواً ثقافياً، قائماً في ذاته وفي أهدافه على المركزيّة الأوروبية، في حين رحّب به البعض الآخر كحافز راق للسعي قُدُماً والسير في ركب التحضّر مع الأمم الأخرى، شرط التمسّك بالهويّة العربية الإسلاميّة الأصيلة، وعدم الحياد عنها مهما كانت الظروف والأسباب الداعية إلى ذلك.

لقد تحقّقت المثاقفة الحقّة_في نظرنا نحن العرب المسلمين على الأقل_ في زمن واحد لا غير، هو الحقبة التي دامت ثمانية قرون من حكم العرب المسلمين لشبه الجزيرة الإيبيرية، أو ما أَطلق عليه العرب إسم "الأندلس" لاحقاً، ولما كانت مسألة التثاقف حاصلة بالفعل بين الثقافة العربية والثقافة الغربيّة، أصبح من الضروري تقصّي المرجعيّات والوسائط التي ساهمت في عمليّة التثاقف، وهو ما سأسعى جاهدة للكشف عنه من خلال هذا البحث، من أجل أن أُبيِّن مدى العمق الذي أثّرت به الحضارة العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي خلال العصر الوسيط ولا سيما في منطقة بلاد الأندلس التي مثّلت بحق الصورة المعبِّرة عن مدى التطوّر والرُّقي الذي بلغته حضارة العرب المسلمين خلال هذه الحقبة.

وقد انطلقت في معالجة هذا الموضوع من جملة من التساؤلات المعبّرة عن إشكاليّة هذا البحث وأهمّها ما يلي: أولاً: ما هي المعابر الأساسية التي سلكتها الحضارة العربية الإسلامية للوصول إلى أوروبا؟ وثانياً: ما هي أهمّ المجالات التي تَشكَّل من خلالها هذا التأثير؟ وثالثاً: ما هي أبرز مظاهر هذا التأثير في المجالين الأدبي والنقدي؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدت على المنهج الوصفي المقارن، وقد تحقّق المنهج الوصفي من خلال تتبع المراحل التي سارت من خلالها الحضارة العربية الإسلامية من المشرق العربي وصولاً إلى الغرب الأوروبي كما لجأتُ إلى المقارنة في بعض الأحيان، وخاصّة حين عرضت ما كانت عليه الأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي لها وما أصبحت عليه بعد الفتح، وفي مدى الاختلاف بين الأندلس خلال حكم العرب المسلمين لها وبين أوروبا بأسرها خلال القرون الوسطى.

وليكون بحثنا هذا على قدر من الضبط والمنهجيّة اعتمدت على خطة بحث مفصّلة، واحتجت فيها إلى مدخل وثلاثة فصول كاملة، نظراً لما للموضوع من أهمّية بالغة، والحق أنّ عدّة فصول لن تكفي للتعريف بالحضارة العربية الإسلامية، هذه الحضارة التي ملأت الأرض بنورها وعظمتها، وكانت خير هاد وخير نصير لأوروبا في نهضتها الحديثة.

ولهذا فقد عرضنا بحثنا هذا حسب خطّة منهجة هي كالتالي:

المدخل: وفيه تناولت التعريف بالثقافة بصفة عامّة، ثمّ تطرّقت إلى المفاهيم التي دارت حول المثاقفة كمصطلح أولاً ثمّ كفعل حضاري ثانياً، كما تحدّثت فيه عن دور الحضارة العربية الإسلاميّة في تعزيز عمليّة التبادل الثقافي بين الحضارات والأمم، وقد كان هذا المدخل حوصلة مُختَصِرةً إلى حدّ ما لما يتعقبها من تفصيل في الفصول اللاحقة.

أمَّا الفصل الأول: فقد قدّمته للقرئ الكريم تحت عنوان: المعابر الكبرى لانتقال حضارة العرب المسلمين إلى الغرب، وقد كنت قدّمت لهذا الفصل بتقديم يحوي أهمّ المبادئ التي إرتكز عليها الدين الإسلامي ليَبرُز كقوّة حضاريّة وثقافية عظيمة، وتبيَّن لدينا أنَّ كل هذه المبادئ ساعدت العرب المسلمين على بلوغ تلك الدرجة الرفيعة من الرُقيِّ والازدهار في تلك الفترة.

أمّا المباحث الرئيسية في هذا الفصل فقد تعرضت فيها لذكر أهمِّ المعابر التي سلكتها الحضارة العربية الإسلاميّة للوصول إلى الغرب الأوروبي وهي ثلاثة مباحث جاءت على النحو الآتي:

1_المبحث الأول: معبر الشام والعراق.

2_المبحث الثاني: معبر جزيرة صقلّية (جنوب إيطاليا).

3_المبحث الثالث: معبر الأندلس (إسبانيا).

أمّا فيما يَتعلَّق بالفصل الثاني فقد قدّمته تحت العنوان الآتي: التأثيرات العامّة وانتقال المعارف المختلفة.

وقد قسّمت هذا الفصل إلى مبحثين اثنين يحوي كلّ مبحث على مطلبين وهما كالآتي:

1_المبحث الأول: انتقال الفلسفة والطّب.

2_المبحث الثاني: انتقال الرياضيات وعلم الفلك.

أمَّا في الفصل الثالث الذي عنونته ب: التأثير الأدبي والنقدي، فقد خصّصته لعرض انتقال المعارف الأدبية والنّقديّة إلى الغرب الأوربي خلال العصر الوسيط، وقد قسّمت هذا الفصل أيضاً إلى مبحثين اثنين هما كالتالي:

1_المبحث الأول: تأثير الشعر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط

2_المبحث الثاني: تأثير النثر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط

إنَّ من أهم ما شجّعني على تناول هذا الموضوع بالذات هو حبي لحضارتنا التي أأمل أن تعود إلى سابق عهدها، كما أدعو الله تعالى أن يُقوّي هممنا لاستعادة فردوسنا المفقود، وهو دعاء كلّ مسلم يحزّ في نفسه ما آلت إليه حضارتنا، التي كانت في زمن مضى شمساً تضيء بنورها على كلّ الأمم والشعوب حولها.

أمّا ما واجهني من الصعوبات في هذا البحث هو ضيق الوقت، لما يقتضيه هذا الموضوع الجوهري من سعة في الزمن، لأنّه ومهما حاولنا لن نلمّ بكلّ ما ساهمت به الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الغرب الأوروبي وقد يحتاج البحث والتقصّي في ذلك سنيناً عدّة ودراسات وفيرة، لإعطاء الموضوع محلّ الدراسة حقّه الذي يستحق ويأخذ نصيبه المطلوب.

والحقّ أنّ ما ساعدني كثيراً جداً في هذا البحث هي كتب النخبة المنصفة من المستشرقين أمثال: زيغريد هونكه، ولوثي لوبيث بارالت، ومونتجومري وات، وجوناثان ليونز، وجوته... وغيرهم كثير ممّن عرفوا قيمة الحضارة العربية الإسلاميّة ومنحوها حقّها الذي تستحق من خلال كتاباتهم المميّزة.

وأشكر الله عزّ وجل الذي أمدّني بعونه وتوفيقه، ثم أشكر كلّ من كان عوناً وسنداً لي في إنجاز هذا البحث من البداية إلى النهاية، حتى ولو بالكلمة الطيّبة أو بالدّعاء المستجاب.

جامعة سعيدة بتاريخ:

المدخل:

علاقات التأثر والتأثير بين الثقافات والشعوب

مما لا شكّ فيه أن الثقافة معطى إنساني وأنها وسيلة قوية للتلاقي والاندماج بين الأمم والشعوب وللثقافة صلة وثيقة بتاريخ الحضارات المختلفة، تداولت هذه الحضارات على بلورة فكرة الثقافة الإنسانية لتستفيد منها أية أمة يكتب لها القوة والحضور.

تعتبر الثقافة ضرورة من ضرورات الوعي الاجتماعي ولا يكون وعي الجماعة أو المجتمع إلا بوعي أفراده، «فالسلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات»[1]، كما تُحدّد مجموع السلوكات الفردية أو الجماعية في مجتمع ما نوعية هذه الثقافة ومدى تطوّرها لديهم وحتى وجودها في الأصل أو عدمه.

هذا وتتشكل الثقافة لدى الفرد منذ نشأته وتتزايد حسب قدرته على البحث والتعلم في شتى مجالات المعرفة الإنسانية، وليست الثقافة بهذا المفهوم ميزة مقتصرة على الكُتَّاب والدارسين ورواد الجامعات وحدهم بل هي حصيلة تجارب الحياة كذلك، وكما هو معروف لدى الجميع أنّ المعنى العام للثقافة هو: "الأخذ من كل علم بطرف وهي كذلك معرفة شيء عن كل شيء".

هذا ويُشكّل المحيط الخارجي للأفراد حافزاً فعّالاً لتنمية الثقافة لديهم، فالثقافة بالصورة العلمية هي: «مجموعة الصفات الخُلُقِية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته»[2].

وبهذا المعنى تكون الثقافة عاملا مشتركا بين كل أفراد المجتمع أو المحيط الذي يتشاركونه فتنشأ بذلك عدّة ثقافات تشتمل على المعنى العام للثقافة فنقول: ثقافة المنزل، وثقافة الحيّ، وثقافة الملبس والمأكل تِبعاً لعادات وتقاليد معينة.

كما تعتبر الثقافة «المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان وفلسفة الجماعة، أيْ معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، وزارة الثقافة والفنون والتراث، مجلة الدوحة، قطر، دت، ص123

[2] المرجع نفسه، ص123

الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تُحدِثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يُؤذّن فجر إحدى الحضارات»[1].

إنّ حاجة الشعوب إلى الثقافة تتزايد بتزايد انفتاحها على غيرها في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية من فكر وأدب وتاريخ وعلوم متعددة كالطب والرياضيات والفلك والفيزياء، وجميع ما يَتّصل بحياة الإنسان خاصّاً كان أو عاماً، وهذا ما يجعل من مسألة الثقافة مسألة راهنة ومتجددة على المستوى الفكري والحضاري، إذْ أنّ الحديث عن الثقافة، لم يكن أوسع مما هو عليه اليوم نظراً لجدّته في الحقول المعرفية، التي تتناوله بالمعنى الممتد الذي يحيل على أنماط الحياة والفكر.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أنّ أصل مفهوم الثقافة وأصلُ تكوّنه في الحياة الاجتماعية عامة «وتطوّره الدلالي وابتداعه، حدث داخل اللسان الفرنسي في قرن الأنوار، قبل أن ينتشر بعد ذلك داخل اللسانين المجاورين الإنجليزي والألماني بواسطة الاقتراض اللساني، فقد ظهرت اللفظة قديماً في التعبير الفرنسي، أي أواخر القرن الثالث عشر منحدرة من "Cultura" اللاتينية والتي تعني "العناية الموكولة للحقل والماشية أو الأرض المحروثة"، وفي بداية القرن السادس عشر انتقلت الكلمة لتَدُلَّ على فعل هو "فلاحة الأرض"، أمَّا المعنى المجازي فقد تكوّن في منتصف القرن السادس عشر، إذْ بات ممكنا أن تشير كلمة ثقافة حينذاك إلى "تطوير كفاءة والاشتغال بإنمائها"».[2]

هذا وقد انتقل استعمال هذه اللفظة من حقل إلى آخر حتى سارت الثقافة إلى المعنى الذي هي عليه اليوم، وأصبحت تُشكّلُ ركيزة أساسية في تكوين أيّ شعب من الشعوب، دالة بذلك على التراث الفكري والثقافي الذي ينمو مع النمو الحضاري للأمة، كما جمعت الثقافة في طياتها أيضاً مجموع العقائد والقيم والمعارف والمعاني والنُظُمْ السلوكية داخل كل مجتمع.

---

[1] المرجع السابق، ص123

[2] دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: د.منير السعيداني، مراجعة: د.الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، مارس 2007، ص17

تعتبر الثقافة خاصّية حضارية وفكرية تتميّز بها كلّ أمّة، ويمكن لجميع الثقافات المختلفة الالتقاء مع بعضها البعض في كثير من الأمور الرئيسية، كما يُعتبر الاختلاف بين هذه الثقافات تحفيزاً للقاء بينها وتعزيزاً لتدارك هذا الاختلاف وتنمية النقاط الثقافية المشتركة بين الشعوب لتتفاعل مع بعضها البعض، لخلق ثقافة متميزة، فالتفاعل الثقافي بين شعبين أو عدّة شعوب أو أمم يؤدي إلى ظهور تأثيرات جزئيّة أو كلّية في طبيعة هذه الثقافات وفي خصائصها وهذا ما يُطلَق عليه اسم **المثاقفة**.

فالمثاقفة في مفهومها العام حقلٌ شاملٌ يَدرس علاقة التأثّر والتّأثير بين ثقافتين أو عدّة ثقافات ومدى التفاعل الحاصل بين هذه الثقافات، وما ينتج عنه من كمٍّ هائل من المعارف المتميزة، وبهذا المعنى تعتبر المثاقفة «آلية من أبرز آليات حوار الثقافات والحضارات والعلاقات المختلفة بين الشعوب والأمم، تلك العلاقات التي نشأت منذ أقدم العصور، وأُطلقت عليها مسميات عديدة مثل: الأخذ والنقل، المحاكاة والتقليد، والتأثير والتأثر... إلى أن برز علم الأدب المقارن في القرن التاسع عشر ليهتم أكثر بعلاقة أدب أمة ما ببقية ميادين المعرفة الأخرى المختلفة عنه؛ لغة وثقافة، والكشف عن الصلات والوسائط التي أسهمت في تلك المثاقفة، لذلك عُنِي الأدب المقارن بدراسات الترجمة والاستشراق والاستغراب وأدب الرحلات وصورة الآخر... واختُزل هذا البحث الواسع في حقل واحد شامل أُطلقَ عليه **المثاقفة**»[1].

أما عن مصطلح المثاقفة في حدّ ذاته فإنّه يَرجِع في الأصل «إلى أقلام الأنثربولوجيين الأمريكيين في حدود 1880، وكان الإنجليز يستعملون بدلاً عنه مصطلع "التداخل الثقافي Cultural Exchanging"، في حين آثر الإسبان مصطلح "التحوّل الثقافي Tranculturating" ، وفضَّل الفرنسيون مفهوم "تداخل الحضارات"، إلا أنّ مصطلح المثاقفة أصبح أكثر تداولا وانتشاراً»[2].

لقد انتشر مصطلح المثاقفة أكثر من غيره من المرادفات المشابهة له لأنّه أقرب دلالة على «التفاعل بين الذّات والآخر، من أجل صياغة جديدة تعكس رؤية تطورية

[1] **مفتاح محمد عمر البكوش: المثاقفة والأيدلوجية العصرية في لقاء الحضارات، مجلةُ Nova للقراء العرب، جامعة UKM، العدد 2 ، 2014/1/7، ص6**

[2] **رواء نعاس محمد: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي لعربي ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العدد 3, 4 ، المجلد7 ،2008، ص172**

وحضارية للعالم، تختزل واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة، تقوم على أساس من الشراكة الضمنية بين الأنا والآخر بغية إنتاج معرفة موضوعية تهدف إلى الارتقاء بالإنسان وشروط حياته، كما تعني التواصل الثقافي بين الأمم والثقافات»[1].

ورغم كل هذا وذاك إلاَّ أنَّ مصطلح المثاقفة أثار ولا يزال جدلاً واسعاً داخل المجتمعات العربية، وقد بحث فيه الكثير من المفكرين والأدباء والنقّاد العرب، منطلقين في ذلك من مسألة الهوية التي تمثل تحدياً في وجه عملية التثاقف، فالبعض منهم« يرى أنه غزو ثقافي، وأنه نتاج تأثير ثقافة غازية قاهرة في ثقافة مستقبلة مقهورة، والبعض الآخر يرى أن التثاقف عبارة عن لقاح وتلاقح، وربما تعني المثاقفة كل ذلك معاً»[2].

وفي هذا الإطار تضاربت المفاهيم واختلفت الآراء ومن هذه المفاهيم ما يؤكد «أن المثاقفة هي هيمنة ثقافة على أخرى، وهو ما يدعو إليه الخطاب الكولونيالي وما بعده، حيث يرى هذا المفهوم أن السلطة الثقافية هي الأبرز في ميدان الثقافة الحضارية، إثر هيمنة الخطاب ما بعد الكولونيالي الذي يضاعف تبعات الاستتباع والاستقطاب والهيمنة في التغطية على الخصوصيات الثقافية، وعناصر الهوية القومية، كما يدعو هذا المفهوم إلى استرداد الهوية ومواجهة الاستعمار والغزو الثقافي»[3].

كما أن هناك مفهوم آخر يرى أنّ المثاقفة هي: «إثراء لمحتويات ثقافية لتلقيح ثقافة أخرى، حيث أنّ النص القوي المميّز يخلق حقيقته ويولّد فاعليّته ويفرض نفسه ولا محيد لأحد على الوقوع تحت تأثيره، حتى لو دخل عليه دخول المفكر المعترض»[4].

أمّا المفهوم الثالث لمصطلح المثاقفة «فيتمثل في المفهوم الأورو_أمريكي للمثاقفة الذي لا يعني أبعد من الانصياع لثقافة الاستعباد وجُلُّ هَمِّ هذا المفهوم هو الانتصار للمركزية الغربية، ومن مقولاته: "تحضير المتوحش"، و"مؤآخاة المتخلف"... إلى

[1] بوعلام إقلولي: المثاقفة والمنهج في النقد العربي الحديث، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دت، ص1
[2] جمال نجيب التلاوي: المثاقفة (عبد الصبور وإليوت... دراسة عبر حضارية)، تر: ماهر مهدي وحنان الشريف، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص7
[3] رواء نعاس محمد: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي العربي، ص172
[4] رواء نعاس محمد: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي العربي، ص172

آخره من المقولات التي تعكس نظرة الاستعلاء والاستعمار الثقافي وتسعى لاحتكار الآخر وتذويب هويته»[1].

ورغم كل التحديات التي واجهت عملية المثاقفة، خاصّة بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافات الغربية الأخرى، إلاَّ أنّ الوعي العربي بضرورة الانفتاح على الآخر والتأثير والتأثر فيما بينهما، ساهم بشكل كبير في ظهور مثاقفة ذات معنى حقيقي، بعيدة كل البعد عن أي تعصب، هدفها الأساس خلق حوار متكامل بين جميع ثقافات العالم.

ومن خلال ذلك حَاولتِ الحضارة العربية الإسلامية _طوال تاريخها الذهبي الطويل_ خلق حوار بنَّاء بين الثقافات والحضارات المختلفة، كما سعت كذلك إلى إنتاج ثقافة جديدة متكاملة ناتجة عن المزج بين هذه الثقافات، والتعايش السلمي السليم بينها، وهذا ما يجعل من المثاقفة في الحضارة العربية الاسلامية حاملة لمعنى «الاتصال والتواصل والانفتاح والتبادل الثقافي الايجابي...والتأقلم مع ثقافة الآخر والاندماج فيها فيساعد ذلك في إضافة عناصر جديدة إلى ثقافة الآخر»[2].

إنَّ المثاقفة المأمولة هي التي تقوم على أساس الشراكة الضمنية والاعتراف بخصوصية الآخر وبعطاءاته اعتماداً على مبدأ التكافئ والعدل والانفتاح «والتفاعل الذي يترتب عليه حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية

الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها، وهي بعكس الغزو الثقافي، إذا كانت توافقية حوارية، لأنّها لا تحمل في طيَّاتها الرغبة في إضعاف الآخر وجعله تابعاً ومعاملته بنظرة استعلائية، لا تقوم على الاحترام والتسامح والاعتراف بثقافة الآخر واختلافه، لأن الهدف الأسمى من المثاقفة الاغتناء المتبادل، باعتبارها رافداً مهماً تسعى كل أمة من خلاله إلى معرفة الآخر واستثمار ما لديه من قيم ومعطيات إنسانية وحضارية وإلى تنمية كيانها الثقافي بشكل خَلاَّق وغير مضر بمقومات الهوية القومية وثوابتها»[3].

[1] المرجع نفسه، ص172
[2] مفتاح محمد عمر البكوش: المثاقفة والاديولوجية العصرية في لقاء الحضارات، ص6
[3] المرجع السابق ، ص6

لقد تبلور في أعقاب المفاهيم الكبرى المتباينة لموضوع المثاقفة على غرار «المفهوم الأورو_أمريكي مفهومٌ معاكسٌ للمثاقفةِ، يرُكِّز على التأثّر والتّأثير بين الثقافات مهما كانت مسمياتها وأوصافها، هذه المثاقفة المعكوسة نمّتها دراسات الأدب المقارن، اعترافاً بالتقاليد العربية والإسلامية في الثقافات الغربية، وبدأ إقرار الاستشراق الأوروبي بذلك، اعترافاً بمكانة الثقافة العربية الإسلامية في الثقافة الغربية، للتقليل من خطر الاستعلاء الثقافي أو التذويب الثقافي، استهدافاً لإمحاء الخصوصيات الثقافية ونفي أصالتها أو تهميش هويتها»[1].

كما ساهم هذا التيار الفكري الكبير في توجيه مفهوم المثاقفة من سلطة الهيمنة والاستعلاء في الفكر الغربي إلى مفهوم مثاقفة إيجابي، يقوم على مبدأ الاعتراف بالآخر وعلى ضرورة التأثّر والتّأثير الإيجابي بين الثقافات الإنسانية مهما كانت مسمياتها ومستوياتها.

ويعتبر هذا التيار الأخير المعبّر الأمثل عن معنى المثاقفة الحقّة التي تعترف بالوجود القوي للثقافة العربية الإسلامية في الثقافة الغربية، ودورها الفعّال في تكوين الفكر الأوروبي وحضارته، وقد عزّز هذا التيار مجموعة الأعمال الاستشراقية المنصفة، التي رأت أنه من الواجب العظيم الاعتراف بما ساهمت به الحضارة العربية الإسلامية في ظهور النهضة الأوروبية الحديثة، وقد كانت هذه الأعمال الاستشراقية اعترافاً صادقاً بالجميل ومن أهم هذه الأعمال:

كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" للمستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه"

وكتاب "فضل الإسلام على الحضارة الغربية" للمستشرق "مونتجومري وات"

وكتاب "تاريخ حركة الاستشراق(الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين)" للمستشرق الألماني "يوهان فوك"

كما تبين الكاتبة الدكتورة والمستشرقة "لوثي لوبيت بارالت" في كتابها "أثر الإسلام في الأدب الاسباني" عن الأثر العميق للحضارة العربية الإسلامية في الحضارة

[1] رواء نعاس محمد: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي العربي، ص172

الغربية وخاصة في شبه الجزيرة الإيبيرية أي ما أطلق عليه العرب المسلمون الفاتحون اسم "الأندلس".

هذا ولم تكن هذه الأعمال الاستشراقية المنصفة إلاّ غيض من فيض من عديد الأعمال التي توالت بعد ذلك من طرف النقاد العرب وغير العرب، الذين لفَت انتباهَهُم الأثر البارز للحضارة العربية المزدهرة في النهوض بالعقل الغربي الذي أحدث ثورة حديثة بعدما كان يقبع في غياهب الجهل والظُلُمات، فسعوا جاهدين إلى البحث والتنقيب في هذا الأثر وإبرازه للعيان، وخاصّة فيما يتعلّق بجادت به ألباب العلماء العرب في شتّى فروع المعرفة الإنسانية، في زمن كانت فيه قارة أوروبا تغط في ظلام جهل دامس.

لقد شكّلت الحضارة العربية الإسلامية قوة ثقافية عظمى خلال القرون الوسطى، وهذا لكونها حضارة تقدّس العلم وتدعو إليه، والفضل في ذلك يعود إلى المصدرين الأساسيين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بحيث يشكّل القرآن الكريم «المصدر الأساسي للثقافة العربية الإسلامية بفضل ما ورد فيه من تعاليم دينية وأخلاقية واجتماعية، ولكونه صالحا لكل زمان ومكان، ومسايراً لمتطلبات كل عصر ومستجداته»[1].

لقد ساعدت تعاليم القرآن الحكيم المتعلقة بالمعاملات وحسن الخلق والإحسان في خلق جوّ من التعايش بين العرب وغيرهم من الأوربيين في شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد شكّل التعايش الحميم بين العرب وغيرهم عاملاً مهماً في استقرار العرب مدّة ليست بالهيّنة في الأراضي الغربية، فسطع نجم الحضارة العربية الإسلامية في تلك البلاد فأقبل عليها القاصي والداني من الأوربيين، لينهلوا منها ما وسعهم من العلم والمعرفة التي كانوا يجهلونها فانبهروا بها أشدّ الانبهار.

وبالإضافة إلى القرآن الكريم شكّلت «السنة النبوية المصدر الثاني الأساس للثقافة العربية الإسلامية وكما اعتمد المسلمون في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، اعتمدوا كذلك على سنة نبيّهم بعد أن جمعوها ودوّنوها وفصّلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومناهجهم المعيشية، وبذلك تكون الثقافة العربية

[1] عبد العزيز بن عثمان التويجري: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ط2، 1436ه/2005م، ص 14

الإسلامية المنطلقة أساسا من القرآن والسنة، ثقافة متفتحة داعية إلى التعايش والحوار والتفاهم»[1].

والجدير بالذكر أنّ الأمة قبل مجئ الإسلام قد كانت عبارة عن قبائل متفرقة لا يجمعها شئ، لا عقيدة ولا هدف ولا رسالة، إلى أن بعث الله فيها رسولاً يبشِّر الناس كافة بنعمة عظيمة تجمع شملهم وتوحدّ قواهم وتخرجهم من الظلمات إلى النور وتهديهم إلى الطريق المستقيم وهي نعمة الإسلام.

لقد حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على العلم والتعلّم، فقد كان يحرص على عتق رقاب الأسرى شرط أن يعلموا المسلمين القراءة والكتابة، كما دعا الإسلام إلى التعارف بين الشعوب والقبائل ونهى عن التمييز العنصري بين البشر، فالناس سواسية عند الله ولا فضل لأحد على غيره إلا بالتقوى، وبهذا المعنى «استوعبت الثقافة العربية الإسلامية كل الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الأمة العربية الإسلامية ووسعت كل الثقافات التي تعايشت معها، فصارت بذلك ثقافة العرب المسلمين، وثقافة العرب النصارى واليهود، وثقافة كل أهل الأديان، وطوائف الملل والنحل التي اندمجت في الكيان العربي الإسلامي، وعاشت في ظلّ الدولة العربية الإسلامية عبر الأزمنة والعصور»[2].

هذا وقد ساهمت أخلاق العرب المسلمين وسماحة الدين الإسلامي على الانفتاح على عطاءات الأمم والشعوب السابقة عنهم، فقد تعايش العرب مع غيرهم من الفرس والروم في العصر العباسي، كما حاول العرب فهم الحضارة اليونانية والرومانية ودرسوا الفلسفة والأدب اليوناني دونما عصبية شعوبية منهم، وعلى العكس من ذلك فقد ساهم انفتاح العرب على هذه الحضارات في إعادة إحياء مقوماتها، فقد ترجم العرب كتب اليونان والرومان ودرسوها ونقّحوها، فوجدها الأوربيون المحدثون جاهزة فعوّلوا عليها في بناء حضارتهم الحديثة.

وفي هذه الفترة بالذّات وبينما كان الغرب الأوروبي يَغطُّ في الجهل والوهم والتعصّب وسيطرة الكنيسة كان العرب في الوقت ذاته يؤلفون الدواوين وأمهات الكتب في جميع فروع المعرفة الإنسانيّة، فلم يتركوا مجالا إلا صالوا وجالوا في ربوعه وألفوا

[1] المرجع السابق، ص14
[2] عبد العزيز بن عثمان التويجري: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، ص17

فيه، وهذا الشغف بالعلم لم يكن صنيع لحظة من اللحظات بل هو متجذّر في الجنس العربي المسلم، فهذا المسعى من أوّل مساعي الأمة العربية الإسلامية، وهو الرُّقي بالإنسان إلى أعلى درجات الحضارة، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والمعرفة، والأهم من ذلك أنّ غاية المسلم من العلم هو التقرّب من الخالق_عزّ وجلّ_رغم ما يحمله العربي من ثقة أنّه مهما بلغ من العلم لن يكون إلا ذرّة من العلم المكنون عند الله عز وجل، وقد كان ذلك من المحفّزات له لا من المثبّطات.

وفي المقابل لتطوّر العرب وإزدهارهم ونبوغهم في عدّة مجالات، كانت قد بدأت بوادر أولى في الغرب الأوروبي للنهوض من السبات الذي دام آلاف السنين وهو يخيّم عليهم، فوجدوا حينذاك العرب المسلمين قد أسسوا لحضارة امتدت من المشرق إلى المغرب وسطع نورها على العالم كافة، فانكبّوا على هذه الحضارة يطلبون العلم والمعرفة التي حرمتهم الكنيسة منها قرون عديدة بحجّة أن المعرفة الخارجة عن معرفة الإله لا طائل منها، وخلال هذا الكمّ الهائل من التعصّب والظَّلاَل المبين ظهرت حضارة عربية مسلمة مهدت الطريق لسطوع نور وضّاء ينير العقول والألباب، وبهذا فقد «كان تفاعُل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى وسيلة لتحرير الشعوب والأمم من الخرافات والوثنيَّات والعصبيَّات والمظالم، وطريقاً إلى إيقاظ الوعي والوجدان وتحرير العقل والنفس»[1].

كما وقد أدَّى اتصال العرب المسلمين بمنابع ثقافات الغرب القديمة من يونانيَّة وإغريقية إلى تكوين فكر شامل عن الحضارات السابقة، فظهر من العرب المسلمين مئات الفلاسفة والعلماء المقتدرين الذين تدارسوا وترجموا ونقَّحوا ما وصلوا إليه من هذه الحضارات، فكان لهم الفضل الكبير في وصل الغرب الأوروبي بتراث أجداده، الذي لولا عمليَّات النقل والترجمة التي تبنّتها الحضارة العربية الإسلامية بكلّ حبّ وشغف لكان ضاع هذا التراث وضاعت معه النهضة الغربية الحديثة.

إنّ فضل الحضارة العربية الإسلامية عل الغرب الأوروبي لا يخفى على مطَّلع منصف أو ناقد حَذِق أو مستشرق نزيه، ومهما يكن من أمر فإنَّ عملية التثاقف تحصيل حاصل في الحياة، فقد كانت ولا تزال قائمة بين الحضارات والأمم منذ أقدم العصور، ولا غِنىً عنها في جميع المجالات، ورغم ذلك كلّه إلاَّ أنَّ التثاقف بين الشرق الإسلامي

[1] المرجع السابق، ص20

والغرب الأوروبي وخاصّة في بلاد الأندلس كان مميَّزاً «إذْ لم يعرف التاريخ الإنساني في مختلف عصوره أنَّ ثقافة منتصرة وغالبة قبلت التفاعل مع الثقافات المنهزمة وأقبلت على التواصل مع الحضارات المنهارة وأبقت على مصادرها وآثارها، وتسامحت مع الأديان والعقائد التي نبعت منها»[1] كالثقافة العربية الإسلامية.

ولمَّا كانت الحضارات سلسلة لا تنقطع فإنّه_ شاء الغرب أم أبى_للحضارة العربية الإسلامية دور لا يمكن تجاوزه، فخطاها بارزة في كلّ الميادين، ومهما أنكر الغرب ذلك فإنَّ التاريخ يكتب الخطى ولا يَمحُها وإنّنا في الفصول اللاحقة_إن شاء الله_ سنبرز أهم المعابر التي ساعدت على وصول هذه الحضارة للغرب الأوروبي وأهمِّ المجالات التي أثَّرت فيها وكتبت إسمها خالداً في طيَّاتها.

[1] المرجع نفسه، ص20

الفصل الأول:

المعابر الكبرى لانتقال حضارة العرب المسلمين

إلى الغرب

_**المبحث الأول**: معبر الشام والعراق.

_**المبحث الثاني**: معبر جزيرة صقلّية (جنوب إيطاليا).

_**المبحث الثالث**: معبر الأندلس (إسبانيا).

لقد جاءت أمَّة الإسلام فكانت خير أمَّة أُخرجت للناس، تؤمن بالله ورسله ولا تفرق بينهم، كما تؤمن بالكتب السماوية التي نزلت على أرواحهم الطاهرة، وقد نزل القرآن الكريم في العرب دون غيرهم من الأقوام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وحثَّهم على طلب العلم والمعرفة، فكانت بذلك الأُمَّة العربية أول أمَّة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم والتعلّم، فقد جاء في أوَّل ما نزل على الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أن "إقرأ"، قال تعالى في سورة العلق: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)**﴾»[1].

لقد كانت هذه السورة الكريمة دعوة إلى العلم والقراءة وذكر لأهم وسائل التعلُّم وهو القلم، ومن خلال هذه الدعوة سادت الأمة العربية فنشرت عقيدة وأقامت حضارة أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم يَغُط في نوم وجهل وظلام عميق وحروب طاحنة.

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنّ الأمة العربية قبل مجيء الإسلام كانت أقواماً متفرقة، تسير بلا هدف، وكان شغلها الشاغل في بادية الحجاز والشام أكثر الأمر أن تعبد الأصنام، وكان الشعر ديوانهم الوحيد يسجّلون به أخبارهم وأيامهم، وكان للخمر مكانة كبيرة عندهم، فكانوا يصورونه وأماكن شربه في أشعارهم، وقد سرى في الجاهلية عادة تعتبر الأكثر سُوءاً في تاريخ البشرية، وهي عادة وئد البنات، أي دفنهن أحياءاً حين ولادتهن، وبعدما جاء الإسلام رفض هذا التصرّف الجهول، على غرار غيره من العادات السيئة التي لا تمت للإنسانية بصلة، وبعد سطوع نور الإسلام على الأقوام العربية ودخوله إلى القلوب قبل العقول، أفاق الناس بعده من جهل شابهه إلى حدّ كبير جهل القرون الوسطى في القارة الأوروبية فيما بعد.

هذا وقد «ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، وامتد فيها إلى الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهر(التركستان) والسند في آسيا، وإلى

[1] سورة العلق، الآيات من1إلى5

مصر والمغرب والسودان في إفريقيا وإلى الأندلس وصقلية وكريت في أوربا، وقامت في هذه الرقعة الواسعة دولة عربية كبيرة، كان لها شأن كبير في العصور الوسطى»[1].

هذا وقد أثَّر الإسلام على العرب أنفسهم كما أثّر في الغرب الأوروبي بعد ذلك، فقد «صاغ الإسلام الأمة العربية صياغة جديدة، فغيَّر كثيراً من مفاهيمها وطبائعها، ومثلها، وقيمها وعاداتها وتطلعاتها، فإذا بها كما جاء في الذكر الحكيم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2]، انطلقت تحت راية هذه العقيدة الجديدة التي آمنت بها تخترق الحدود وتحطم الحواجز، التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم، وقد تهاوت الدّول أمام الدفع العربي الإسلامي، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك، وانجلى غبار الفتح، عن امبراطورية جديدة ولا أوسع وعن حضارة ولا أسطع وعن مدينة ولا أروع، عوّل عليها الغرب في تطوّره الصَّاعد ورقيّه البنّاء»[3].

لقد ساهمت العقيدة الإسلامية في تنشئة الإنسان تنشئة فاضلة، يهدف من خلالها إلى تقويم سلوك الإنسان اجتماعياً وإنعاش القوة المحركة للحضارة الإنسانية، فدعا إلى طلب العلم ولو كان في أبعد بقعة من الأرض، لأن طلب العلم فضيلة تغني الإنسان عن تضييع وقته وجهده وحياته فيما لا يدر عليه بفائدة ولهذا جاءت هذه العقيدة السمحة تحثّ على طلب العلم والمعرفة، وحتى ولو كانت هذه المعرفة موجودة لدى العدو بذاته لسعى المسلم إلى طلبها عنده بكل فخر واعتزاز.

والأمّة العربية الإسلامية لم تنطلق في مسار بحثها وتنقيبها عن المعرفة الإنسانية من العدم، فقد اعتمدت هذه الأمّة على الدين الإسلامي الحنيف، وهو بدوره اعتمد على مبادئ عديدة، نذكر أهمَّها على سبيل الإجمال:

1/مبدأ شمولية طلب العلم:

---

[1] أحمد علي الملّا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر للطباعة والنشر، ط2 ، دمشق، سوريا، 1401ه/1981م، ص8

[2] سورة آل عمران، الآية 110

[3] أحمد علي الملّا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص7

ويعدَّ هذا المبدأ الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها الدين الإسلامي فهو «الأوَّل في قائمة مبادئ الإسلام السمحة، فالله سبحانه وتعالى كرَّم العلم وكرَّم فعل القراءة ووسائلها مثل: القلم والصحف...وغيرهما مِمَّا جاء في الآيات الكريمات التي تُعلي من شأن العلم وأدواته، كما أعلى الإسلام من شأن العلماء وطالِبي العلم وجَعَلهم في صفِّ المجاهدين والشهداء»[1]، فقد جاء في الذكر الحكيم ما يدلّ على أنّ العلماء هم أقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالي لأنهم يخشون الله في كلّ أمورهم، ولهذا فقد أعلى الإسلام من شأنهم وهم أولوا الأمر الذين يبتغى العلم من لدنّهم، يقول عزّ وجل في كتابه العزيز: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2]، ومن هنا نعلم أنّ مبدأ العلم في الإسلام هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة خلال العصور وعبر التاريخ.

2/مبدأ التدبّر والتأمّل والتفكير في ملكوت الله:

وهذا المبدأ هو الثاني في قائمة مبادئ الدين الإسلامي وفيه «يهيب الإسلام بالعقل الإنساني ويدعوه إلى التدبُّر والتفكير حتى يصل إلى المعرفة الصحيحة ويتراءى له الحق الواضح المبين، ويرفض الإسلام الجمود العقلي ويدعو إلى إعمال العقل والبحث والتساؤل لإنتاج معرفة حقيقية ذات فائدة للبشرية عامة، وقد تمثَّلت هذه الدعوة في العديد من الآيات القرآنية في سورة البقرة وآل عمران ويونس والروم والغاشية، ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**﴾[3].

وهذه الآيات فضلاً عن أنَّها تلفت نظر الإنسان لوجود الإله الواحد المعبود، فإنَّها في الوقت نفسه تفتح أمام العقل الإنساني آفاق جديدة من المعرفة الكونية، وهذا المبدأ

---

[1] ينظر: عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الإصدار1 دت،دب،ص7، 8، 9.

[2] سورة فاطر، الآية 28

[3] سورة البقرة، الآية 164

يُشكِّل مفتاحاً كبيراً من مفاتيح الحضارة وإشعاع قوي لاستجلاء المعرفة... على مرّ السنين والأعوام»[1].

3/مبدأ تكريم الله للإنسان:

يعتبر الدين الإسلامي الدين الوحيد الذي يمجّد الإنسان، ويوليه أهمّية كبرى وفي هذا الشأن يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)**﴾»[2].

وبالإضافة إلى ذلك فقد «كرَّم الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل والحواس لأنهما طريقان مهمَّان إلى المعرفة واستجلاء الحقيقة، واكتشاف عظمة الله في الكون، هذا وقد جعل الله الإنسان مسئولاً عن عقله وحواسه واعتبر الإنسان المُعطِّل لعقله وحواسه كالأنعام بل هو أضلّ... فقد قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(179)**﴾، كما أنَّ من العواقب الوخيمة لجمود حواس الإنسان وعدم سعيه لإعمالها ضلاله في الدنيا والآخرة وجهنم مصير هذا الإنسان الذي لا يعي فضل الله عليه وما كرّمه به عن غيره من المخلوقات، كاستخلافه في الأرض وجعله سيّداً عليها وتسخير كلّ الكون له وجعل الطبيعة كُلِّهَا تَحت تصرّفه، فوجب على هذا الإنسان أن يستخدم كل هذه القوى لمصلحة الحضارة، وخدمة الإنسانية جمعاء وكرامة الجنس البشري والرقيّ به»[3].

4/ مبدأ المساواة الإنسانية:

يُعتبَر هذا المبدأ ميزة أساسية للدين الإسلامي لما يحمله من قيم إنسانية نبيلة، فقد «جاء الإسلام بهذا المبدأ العظيم وتفرد به عن غيره من الديانات السماوية، وقد كان الرسول الكريم محمد_صلّى الله عليه وسلّم_خير داعية للمساواة وعدم التمييز والابتعاد عن العنصرية، فيقول عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع "كلّكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى والعمل الصالح"

[1] عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية ، ص10 ،11
[2] سورة الإسراء، الآية 70
[3] ينظر: عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، ص11، 12

، وهذه الوصية من الرسول الكريم تؤكد أنَّ كل من انضوَوا تحت راية الإسلام يُعدون مسلمين بغضّ النظر عن أجناسه وألوانهم ولغاتهم المختلفة والمتباينة، وما يتمّز به أحد عن غيره هو تقواه ومدى مساهمته في بناء الحضارة الإنسانية، بما فيها الحضارة العربية الإسلامية»[1].

وقد شَكَّل هذا المبدأ مفتاحاً فعَّالاً ساهم وبشكل كبير في بناء امبراطورية عربية إسلامية عظيمة انفتحت على جميع الأقطار والأمصار، فأعجب بها غير العرب ووجدوا فيها الملاذ من غطرسة الكنيسة وانعدام عدلها مما شَكَّل قوة للحضارة العربية الإسلامية فانبعثت وازدهرت على مرّ العصور.

هذا ولم يقف الإسلام على مبدأ المساواة الإنسانية فحسب بل تعدَّاه إلى كون الحضارة والثقافة وكل ما يَخصُّ الإنسانية هو عامل مشترك بين جميع البشر حيثما كانوا وأينما ارتحلوا، فدعا الدين الحنيف إلى مبدأ آخر أكثر انفتاحاً داعياً فيه إلى التعارف والتجاور والحوار النزيه والاندماج مما يسهل حياة الإنسان ويخرجه من بوتقة الانغلاق على نفسه ويتمثّل هذا المبدأ في الانفتاح على الآخر والتعارف معه.

5/ مبدأ الانفتاح والتعارف:

وقد جاء في القرآن الكريم نداءٌ لأجل هذا المبدأ العظيم حيث «يقول الله_عزّ وجلّ_في سورة الحجرات: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)**﴾[2]، كما أنَّ السنّة النبوية قد ارتكزت على هذا المبدأ فقد قال _صلى الله عليه وسلم_ : "الحكمة ضالّة كل مؤمن فإذا وجدها فهو أحقّ بها"»[3]، وهذه دعوة صريحة من الدين الإسلامي والرسول الكريم إلى الانفتاح وجعل غاية المسلم في هذه الحياة البحث عن المعرفة والحقيقة والحكمة مهما كان مصدرها.

[1] ينظر: المرجع السابق، ص13
[2] سورة الحجرات، الآية13
[3] ينظر: عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، ص15

ومن خلال هاذين المبدأين الأخيرين حرص العرب المسلمون على الانفتاح على الشعوب والثقافات الأخرى «فتفاعلت الثقافة العربية الاسلامية مع ثقافات الأمم والشعوب التي عرفت الإسلام والتي اتّصل بها المسلمون أو انضوت تحت لوائه، وكان هذا التفاعل الثقافي المرن والمتفتّح أهمَّ عنصر من عناصر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، ودافعاً نحو الانفتاح على الثقافات وهضمها واستيعابها وتكييفها مع روح الثقافة العربية الإسلامية، كما كان هذا العنصر حافزاً إلى فهم طبائع الأمم والشعوب والغوص في أغوارها والتماس الحكمة من حضاراتها، تحقيقاً لمبدأ التعارف القرآني، وتأكيداً لرسوخ الهوية الثقافية الحضارية العربية الإسلامية»[1].

هذا وقد كان الدافع الإسلامي الحريص على الامتزاج بين الثقافات والحضارات عاملاً مُهماً وبه «انفتح المسلمون على غيرهم، وتعارفوا على شعوب كثيرة من غير ملّتهم، وكان من نتيجة هذا الانفتاح والتعارف أن استفادوا من مدنيات متعدّدة، وحضارات متنوعة كحضارة الإغريق وحضارة اليونان وحضارة الرومان، وحضارة الفرس، وحضارة الهند...وغيرها من الحضارات التي عاصروها وأخذوا منها، فتكوَّنت لدى المسلمين خبرات واسعة في شتى المجالات الصناعية والتجارية والزراعية والعمرانية والعلمية والفنّية...فصهروها في بوتقة الإسلام فجاءت الحضارة فيما بعد مطبوعة بطابعه، وممهورة بخاتمه»[2].

لقد انتشر الإسلام في ربوع مختلفة من هذا العالم الفسيح وانتشرت معه الحضارة العربية الإسلامية النابعة من روحه السليمة، التي تعتزّ بتراثها وتثق بالإرادة الكامنة في روح الدين الحنيف، الداعي إلى الابتكار وطلب العلم والمعرفة والانفتاح على الأمم والشعوب الأخرى، فاتسعت بذلك رقعة الحضارة العربية الإسلامية، فعبرت هذه الحضارة العظيمة القارات وتعددت مراكز ازدهارها، «ففي مكّة والمدينة المنوّرة وجزيرة العرب بعامة نبعت أصولها، وكملت أسسها الروحية والخلقية بفضل الإسلام، وفي دمشق أخذت الحضارة الإسلامية تتشكّل بمظاهرها المختلفة في عصر الخلافة

[1] عبد العزيز بن عثمان التويجري: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ط2، 1436ه/2015م، ص19.
[2] عبد الله صالح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، ص16

الأموية، وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية نضجت الحضارة ووصلت مستوىً رفيعاً منذ أواخر القرن الثاني بعد الهجرة»[1].

ولم يتوقف المدّ الإسلامي إلى هذا الحدّ فقط بل تعدّاه إلى العديد من البلدان مثل: مصر وإيران والهند وتركيا وشمال إفريقيا ووسط آسيا، وجنوب إيطاليا وإسبانيا، فقد شكَّلت مدن الأندلس كقرطبة وإشبيلية وغرناطة...وغيرها ألمع مراكز للحضارة العربية الإسلامية هناك، كما سمَت في جزيرة صقليّة تعاليم الدين الإسلامي التي وجدها الغرب خادمة للإنسان وللمجتمع، وتصف المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه هذا الفتح العظيم لهذه الأقطار فتقول: «إلاَّ أنّ هذا العالم القديم تحطم ووحدته تمزّقت شَلواً إثر شَلو، حين انطلقت من جنوبي الجزيرة العربية جحافل العرب الرُّحل تحدوها قوّة عارمة، ويدعمها تنظيم مدهش بثّهما الرسول محمد في صفوفها، فتصل إلى أطراف البحر الأبيض المتوسط حتى شواطئ الأطلسي، وتسير على الشرق والجنوب والغرب وتُخرِج ذاك العالم القديم من بوتقته الثقافية السابقة»[2].

وقبل الحديث عن الحضارة العربية الإسلامية وما خلّفته من نهضة ثقافية وحضارية في شعوب أقل ما يقال عنها أنها كانت في سباة عميق أو في غفلة من أمرها، فكانت الحضارة العربية الإسلامية بمثابة المشعل الوَضَّاء في طريق هذه الشعوب فأَخرجتها من بوتقة الجهل والظَّلام، وعدم الوعي الذي كانت فيه بما يحصل حولها من تطوُّرات فكرية وثقافية وحضارية في العالم عامّة وعند العرب والمسلمين خاصّة.

أقول وقبل الحديث عن هذا وذاك وعن ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية من رُقيّ وتقدّم وازدهار_خلال العصور الوسطى خاصّة في شبه الجزيرة الإيبيرية أو ما سمّاه العرب المسلمون بالأندلس لاحقاً_في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية وجب علينا هنا أن نُعرِّج على أهم وأبرز المعابر والطرق الأساسية التي انتقلت عبرها هذه الحضارة إلى الغرب الأوروبي[3]* خلال العصر الوسيط.

---

[1] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418ه/1997م، ص25

[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط8، بيروت، 1413ه/1997م، ص24 ،25

* عبارة الغرب الأوروبي: يُقصد بها النظير لعبارة الشرق العربي، وليس المقصود منها غرب أوروبا، فالمقصود منها هنا هو [3]المعنى المجازي وليس المعنى الجغرافي.

لقد تعددت الطرق والمعابر «التي سلكها التراث العربي الإسلامي إلى الغرب، فقد غزت النهضة العربية عقول الأوربيين وأفهامهم، فاختلفت ردود أفعالهم اتجاهها بين مقاومة عنيفة أو اندماج معها والمساهمة فيها، فكان لقاءً بين فكر وَصَلَ درجة فائقة من الرُّقَيِّ، ومَنَاهج وُضِعت على أُسُس تجريبية وعقلية، وبين فكر يتلمس الطريق إلى الصواب، ويعمل جاهداً على الاستفادة من العلم العربي الوافد»[1].

إنَّ الغرب الأوروبي حين استفاق من غيبوبته، وجد عالماً عربياً إسلامياً مُتقدماً حضارياً وحتى دينياً لأنّ الأساس الذي ارتكزت عليه الحضارة العربية الإسلامية في سيرها قُدُماً هو دينها الحنيف، الذي يَحثُّ على التَزوُّدِ بالعلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة أينما وجدت، ومن خلاله صارت أُمّة الإسلام محط أنظار كل من أراد طلب العلم أو السير نحو التّحضُّر، فقد سارع الأوربيون في ذلك مُتَّخذين كل سبيل وطريق إلى هذه الحضارة العربية الإسلامية الرَّاقية.

لقد تَمّت عملية الإخصاب بين الفكر العربي الإسلامي الشرقي وبين الفكر الغربي الأوروبي عبر معابر ثلاثة رئيسية، نحدّد كل منها في مبحث على النحو الآتي:

[1] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م، الاسكندرية، مصر، ص291

1_المبحث الأول: معبر الشام والعراق.

إنَّ حَاضِرتَيْ الشام والعراق من الحواضر الأساسية التي احتضنت الحضارة العربية الإسلامية، فقد مَثَّلَت هاتان الحاضرتان أهم مراكز الخلافة الإسلامية لما لهما من تاريخ طويل، فقد تعاقبت عليهما عِدَّة حضارات وديانات سماوية ولغات عديدة، ففي العراق مثلاً حين «فَتحت الجيوش العربية الإسلامية العراق في عهد الخلفاء الراشدين _رضي الله عنه_ وجدت أمامها حوالي سبعة ملايين عراقياً لغتهم الثقافية والدينية هي السريانية بما فيهم الجماعات العربية في إمارة المناذرة في الحيرة أما من الناحية الدينية فَإنَّ غالبيتهم الساحقة تابعين للكنيسة النسطورية وهناك أقليات من أتباع الكنيسة اليعقوبية (السورية السريانية) وكذلك اليهود والمندائية (الصابئة)»[1].

أمَّا بلاد الشام أي سوريا حالياً فقد كانت تحت سيطرة الرومان قبل الفتح الإسلامي، ولم يتم ذلك الفتح إلاَّ بعد حرب سجال بين العرب والروم دامت ثلاثة أيام، وقد كان «فتح دمشق من أهَمِّ فتوح العرب في سوريا، ولم تلبث دمشق الشهيرة أن أصبحت في العهد الأموي عاصمة الدولة العربية بدلاً من المدينة»[2].

كما فتح العرب جميع مدن سوريا ومن أهم هذه المدن مدينة القدس، وقد «كان لفتح القدس دويٌّ عظيم بين المدن التي استولى عليها المسلمون، وكان المسلمون يعلقون أهمية كبيرة على فتح هذه المدينة التي كانوا يقدّسونها تقديس النصارى لها، ففيها توفّي

[1] سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع ، ط1، الرياض، السعودية، 1431ه/2010 م، ص68

[2] غوستاف لوبون: حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط ، القاهرة، مصر، ، دت، ص164

المسيح الذي هو عند المسلمين من أعاظم الأنبياء، وفيها الصخرة الشهيرة التي عَرَج منها محمد صلى الله عليه وسلم في السماء»[1].

هذا وقد أبدى العرب المسلمون تسامحاً عظيماً اتجاه جميع من اتصلوا بهم من الديانات الأخرى فقد «تعايش النصارى العراقيون مع الفاتحين المسلمين إذْ كانوا يطمحون إلى التخلص من واقع الظلم والاستبداد الذي ذاقوه من قبل الفرس والروم مئات السنين، وقد حصلوا فعلاً على عهود بالأمان من قادة جيوش المسلمين وعلى رأسهم القائد المُظفَّر سيف الله المسلول خالد بن الوليد_رضي الله عنه_ ومن الخلفاء الراشدين_رضي الله عنهم_ ومن جاء بعدهم من خلفاء الدولتين الأموية والعباسية»[2].

لقد شهدت الحضارة العربية الإسلامية أسمى مراحل التطوّر والازدهار بعد فروغها من الفتوحات الإسلامية، فقد توجهت الجهود من المجال الحربي إلى لمجال العِلمي، واهتم الخلفاء الراشدون وبنو أمية والعباسيون من بعد ذلك بالآداب والعلوم والصناعة والزراعة وكل أشكال المعرفة الإنسانية الأخرى، فقد «ارتقى العرب المسلمون بالحضارة الإنسانية عندما جاء دورهم في بنائها، منذ نزل الروح الأمين ب:"إقرأ" على قلب محمد بن عبد الله _صلّى الله عليه وسلّم_، فنقلوا وترجموا، وصحّحوا ودرسوا، ثم أضافوا فأبدعوا»[3].

هذا ولم يقتصر دور العربي المسلم الشغوف بطلب العلم والمعرفة على النقل والترجمة من العلوم اليونانية والرومانية دونما زيادة أو نقصان، بل إنَّ العرب ترجموا ونقلوا ثُمّ صَحَّحوا ونَقَّحوا ما وصل إلى أيديهم من هذا التراث، وأَضافوا إليه ما جادت به قريحتهم الفَذَّة، فاصطبغ هذا التراث بالروح العربية الإسلامية، فأصبح كأنَّما أُحيِّيَّ من جديد.

هذا وقد شَكَّلت المدن العربية الإسلامية التي فتحها العرب المسلمون مع كثير من التسامح والوِدّ مع أهلها، مَعابراً أساسية وأداة وصل بين الغرب الأوروبي وبين تراثه المفقود، الذي لولا العرب المسلمون لما لمسته أيديهم ولا رأته أبصارهم ولاندثر وانقرض انقراض الديناصورات.

---

[1] المرجع نفسه، ص165

[2] سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ص68 ،69

[3] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دط، دمشق، سوريا، 1996، ص192

ومن هذه المدن العريقة بلاد الشام وهي ما يُطلق عليه حالياً إسم "سوريا"، وتحتل هذه البقعة من الأرض مكانة جميلة ومُقدَّسة في قلوب العرب المسلمين، لِما لها من فضل في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية فمنها انطلقت الرسالة المحمدية عابرة إلى القارات المجاورة كآسيا وإفريقيا وأوروبا.

وقد تَبادلت الأَفضال هنا بحيث كان للعرب المسلمين فضلٌ كبير أيضاً على هذه البلاد فقد «استردت سوريا أيام الحكم العربي ما أضاعته من الرَّخاءِ مُنذ زمن طويل، وبلغت درجة رفيعة من الرُقيِّ في العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي، وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي وترك العرب الناس أحرارا في أمور دينهم، وأَظلَّ العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاَّتِينِ بحمايتهم، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدِّعة والطمأنينة، وبلغت الصناعة والزراعة درجة رفيعة في سوريا وازدهرت بسرعة كُبريات المدن السورية كالقدس وصُور وصَيدَا ودمشق»[1].

هذا وتعتبر بلاد الرافدين من أغنى أقطار العالم، فقد شَكَّلت التجارة فيها بين المسلمين وغيرهم عاملاً أساسياً في عملية التواصل والحوار ونقل العلوم والمعارف، وانبعث الدين الإسلامي كذلك بفضل التجارة فقد «انتشر الإسلام في شمالي آسيا وآسيا الوسطى عن طريق التُّجار والذي يقرأ رحلة ابن فضلان وغيره كابن جبير والعياشي وابن بطوطة وسليمان التاجر يدرك ذلك الحوار الذي تبناه التّجار المسلمون مع علماء تلك البقاع وقادتها السياسيين والاقتصاديين الذين قبلوا الإسلام في مجملهم ولم يقبله بعضهم، لأن الإسلام يدعو إلى التوحيد، ويحرّم الزنا وشرب الخمور وأكل لحم الخنزير، إنه دين سماوي يرتقي بذائقة الإنسان في عبوديته إلى العبودية الحقة لله تعالى»[2].

لقد ساهم اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب والأمم في تطوير الفكر العربي الإسلامي وانفتاحه على مختلف العلوم، سواء في فترة الفتوحات الإسلامية أو ما بعدها، حيث انصرف الخلفاء الراشدون وبنو أمية وبعدهم بنو العباس إلى الاهتمام بالجانب الفكري والثقافي في الأمة العربية الإسلامية، فقد «جاورت بلاد العرب عند ظهور الإسلام في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، في القرن الأول الهجري، السابع الميلادي،

[1] غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص166
[2] سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ص695

أربع أمم(حضارات)كبرى، كان لها أَثر بارِز في نقل العلوم إلى العربية هي: اليونانية(الإغريقية)، والسريانية الشرقية، والفارسية والهندية»[1].

وقد جرى هذا التأثير بين الحضارة العربية الإسلامية وغيرها من الحضارات عبر عِدَّة طرق منها التجارية والرحلات والنقل والترجمة، وقد شَكَّل هذا الأخير عاملاً مُهِماً في نقل العلوم والمعارف خاصّة من اليونانية ثم إلى السريانية وبعدها إلى العربية، وقد شكّلت اللغة السريانية هنا واسطة مهمة في عملية الترجمة وبعد أنْ تَمكَّن العرب المسلمون من اللغة اليونانية أصبحت الترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرة.

لقد تأثرت الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات التي عاصرتها ولَكنَّ تأثيرها فيهم بعد ذلك كان أكبر وكان دورها في النهضة الأوروبية الحديثة أعظم، وهذا الدّور لم يكن كما يصفه الغرب الأوروبي اليوم بالجسر الذي لا يعني شيئاً، ويُغفِلون أو يَتغافلون أنَّ هذا الجسر كان المنقذ لتراثهم اليوناني والإغريقي من الاندثار ويَتناسون ما ساهم به هذا الرابط العظيم لكي يَصلهم هذا التراث مُصحَّحاً ومُرتباً ومُنقَّحاً، لا تشوبه شائبة ولكن عبثا فإنَّ الجميل لا ينفع مع من عجزت البشرية أن تقنعهم بأن أصل الإنسان أشرف من أن يكون قِرداً.

وكما أسلفنا الذّكر فإنَّ لعملية النقل والترجمة أهمية كبيرة كما لها من أَثر بليغ في تطوير المعرفة الإنسانية في الحضارة العربية الإسلامية، ولم تأتِ هذه العملية من قبيل اللَّهو والعبث بل «هناك مجموعة متعدِّدة من الأسباب والعوامل، التي دعت المسلمين إلى اللجوء إلى حركة النقل والترجمة، من الثقافات الأخرى إلى اللغة العربية، بعض هذه العوامل فكرية بحتة وبعض منها تَخطَّى مرحلة الفكر إلى الشغف بفكر الغير، من قبيل التنافس ومحاولات الوصول إلى المكنون في الثقافات الأخرى، ومن العوامل ما هو تجاري تسويقي، نشأ عن ملاحظةِ تَوجُّه السلطة، من خلفاء وولاة وأفراد، إلى التعرُّف إلى ما لَدى اليونان والهنود من حكمة وعلم»[2].

وقد كان من بين أهمِّ العوامل التي ساهمت وبشكل كبير في رفع الهمم إلى البحث والترجمة والتأليف اهتمام الخلفاء والأمراء العرب المسلمين بالعلم وشغفهم بالكتب،

---

[1] علي بن إبراهيم النملة: النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط3، الرياض، 1427ه/2006م ، ص41

[2] المرجع السابق، ص53

وتشجيعهم لعمليات النقل والترجمة وإغداق الأموال على النقلة والمترجمين، فسارع الكُتَّاب إلى السعي وراء تلك العطايا وأتحفوا المكتبات العربية بمختلف الكتب والمؤلّفات التي وقعت عليها أيديهم فترجموها في الحال، وبثّوها هدايا للحكّام العرب الذين يَسرُّهم هذا النوع من الهدايا أكثر من أي نوع آخر منها.

ويُعَدُّ العصر العباسي أسمى العصور العربية، بحيث تَميَّز عن غيره من العصور الأخرى بالرُّقي والازدهار في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وخَاصَّة المجال الفكري والأدبي، فقد كانت فترة حكم الخليفة العباسي الثاني أكثر المراحل نُضجاً وتَطوراً، فقد بَنى أبو جعفر المنصور "بيت الحكمة"[1]* في بغداد سنة765 وسُمِّيت ب"مدينة السلام"، وقد شَكَّلت هذه المدينة بداية جديدة للعالم الإسلامي كَمركز فكري وعلمي، «وقد ثبت أنَّ توقُّع الخليفة بأنَّ مدينته ستكون مدينة ليس لها نظير لم يكن تبجحاً فارغاً، فقربها من طرقات تجارة المحيط الهندي، وثقافتها النابضة مُتعدِّدة الأعراق، وبُعدها الآمن عن الأخطار العسكرية التقليدية التي كان يُمثِّلها اليونان البيزنطيون، وكُلُّ ذلك ساعد بغداد على أن تَظلَّ قروناً من الدهر أنجح وأغنى مركزاً للتواصل والتجارة والتبادل الثقافي والعلمي في العالم»[2].

كما وقد شَكَّل اكتشاف مادّة الورق وظهوره أوّل مرة عند العرب المسلمين عاملاً مهماً في النمو الحضاري والفكري وبداية جيدة لمشروع ثقافي عربي إسلامي عظيم، فقد ظهر الورق عند العرب حين تلاقيهم مع الصينيين خلال التوسُّع الإسلامي، وبعد هذا الاكتشاف العظيم «سرعان ما أصبحت سمرقند المركز الإسلامي الرئيس لصناعة الورق، كذلك ازدهر هذا الفن بسوريا وشمال افريقيا ومدينة شاطبة "jativa" الأندلسية التي تَخصَّصَت في صناعة الصحائف الورقية الثقيلة اللمَّاعة، وقد ورد ذِكر أوَّل مصنع

*[1] دار الحكمة أو بيت الحكمة:

عُرِفَ عن أبي جعفر المنصور عنايته بنشر العلوم المختلفة، ورعايته للعلماء من المسلمين وغيرهم، وقيامه بإنشاء" بيت الحكمة "في قصر الخلافة ببغداد، وإشرافه عليه بنفسه، ليكون مركزاً للترجمة إلى اللغة العربية، وقد أرسل أبو جعفر إلى إمبراطور الروم يطلب منه بعض كتب اليونان، فبعث إليه بكتب في الطب والهندسة والحساب والفلك، فقام نَفَر من المترجمين بنقلها إلى العربية، فقد وصل إلى بيت الحكمة في عهد هارون الرشيد دفعة كبيرة من الكتب ولم يعد يقتصر على حفظها بل وَضَمَّ إلى جانب المترجمين الناسخين والخازنين الذين يتولون تخزين الكتب، والمجلدين وغيرهم من العاملين، بلغ نشاط بيت الحكمة ذروته في عهد الخليفة المأمون الذي أولاه عناية فائقة، ووهبه كثيرا من المال والوقت حتى أنّه استقدم من قبرص خزانة كتب الروم، وبذلك أصبح بيت الحكمة خزانة كتب ومركز ترجمة وتأليف ومركز للأبحاث ورصد النجوم، ومن أهمِّ ما ميَّز بيت الحكمة هو تعدد المصادر وهي الكتب القديمة و التراجم و الكتب التي أُلِّفَت للخلفاء والكتب التي نسخت، ممَّا جعله مَجمعاً علمياً، إلى أن اجتاح المغول بغداد سنة (656ه = 1258م)، حيث تم تدمير معظم محتوياته في ذلك الوقت.

[2] جوناثان ليونز: بيت الحكمة (كيف أسَّسَ العرب لحضارة الغرب)، مركز البابطين للترجمة مع الدار العربية للعلوم "ناشرون"، دط، الكويت، دت، ص88

للورق ببغداد سنة 795، وصار سوق الورَّاقين لاحقاً، الذي يَضمُّ مئات الحوانيت التي تبيع السلع الورقيّة الفاخرة، مفخرة عاصمة العباسيين في الحقيقة»[1].

إنَّ هذا الاكتشاف العظيم قد سَهَّل الحياة الثقافية والعلمية فتزايد الانتاج الفكري والثقافي الذي لاقى ترحيباً من الخلفاء وأصحاب السلطة، فأغدقوا بالمال على الكُتَّاب والمترجمين والنّقلة في تلك الفترة، فصار العصر العباسي لكثرة الإنتاج الفكري فيه العصر الذهبي للأمة العربية الإسلامية.

لقد ساهم وجود مادة الورق عند العرب بشكل كبير كما «كانت سرعة توفيره وسهولة استخدامه ونقله قد سرَّعت إنتاج ونشر المخطوطات، في أرجاء الإمبراطورية العباسية كافّة وما وراءها، وسمح هذا بدوره بالتبادل السريع والفعّال للأفكار والمعارف، مُحفِّزاً الطَلَب على إنتاج المزيد من الأعمال والبحوث والكتابات العلمية المعرفية، كذلك غَذَّتْ صِناعة الورقِ ثَقافةَ الكِتاب العميقة لدى العرب، فلطالما كانت المعرفةُ والثقافة موضع تقدير في المجتمع المسلم، وصارت أسواق الكتب والمتاجر المتخصصة سمة معتادة من سمات الحياة في المدن الإسلامية»[2].

لقد كان حُبُّ العرب وشغفهم بالعلم سمة بارزة فيهم، وتصف المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه هذا الحب قائلةً: «لقد أحاط العرب الكُتب بقلوبهم، حتى المؤلفات الفنية الدقيقة في الهندسة والميكانيكا والطب والفلك والفلسفة، وكما تَطلبُ الدولةُ المنتصرةُ من الدولةِ المنهزمةِ تسليم أسلحتها وسُفنِها الحربية كشرط أساسي لعقد الصلح، هكذا طلب هارون الرشيد بعد احتلاله لعموريّة وأنقرة تسليم المخطوطات الإغريقية القديمة، وكما يستولي المنتصرون اليوم على المناجم والصناعات الحربية الهامة والأسلحة المدمرة مع مخترعيها نرى المأمون بعد انتصاره على ميخائيل الثالث (Michael 3)، قيصر بيزنطية، يطالب بتسليم أعمال الفلاسفة القدماء التي لم تتم ترجمتها بعد إلى العربية، ويعتبر ذلك بديلاً عن تعويضات الحرب، إنها أيضاً أسلحة تساهم في بناء المجد»[3].

لقد عرف العرب قيمة الكتب وقدَّروها حقَّ تقدير، بل وجعلوها عِتقاً لأصحابها لأنَّ قيمة العلوم عند العرب لا تُقدَّر بثمن، ووصل الحَدُّ بالخلفاء المسلمين أن يشتروا الكتب

[1] جوناثان ليونز: بيت الحكمة (كيف أسَّسَ العرب لحضارة الغرب)، ص86
[2] المرجع السابق، ص86
[3] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص375

بالذهب تقول المستشرقة بارالت في هذا الشأن: «ولا شكّ أنَّ أبلغ دلالة على بلوغ هذا الشأن الحضاري تأتي من أنّ الخلافة العباسية في بغداد قد شهدت ظهور يقظة فكرية مدهشة كانت بداياتها من قبل ذلك في دمشق، بدأت المعرفة تحظى باحترام كبير، وتولى الخليفة المأمون بنفسه حماية الأطباء، والمحامين، والكتّاب والمعلمين، وشعراء البلاط وبدأت الترجمات عن الكلاسيكيين اليونانيين، وعن المؤلفين الهنود والفرس... إنّ خلفاء بغداد قد أولوا المعرفة عناية خاصة، فكانوا يشترون المخطوطات ويقدرون ثمنها بوزنها من الذهب، بل إنّهم كانوا يتبادلون أسرى الحرب بالمخطوطات وكانت أغلى شئ بالنسبة لهم»[1].

لقد أقرَّ الغرب الأوروبي في إجلال بالقيمة العظمى التي أولاها السادة العرب المسلمون للعلم عامّة وللكتب خاصّة، فالعرب المسلمون قد أولوا المعرفة الإنسانيّة أهمّية كبرى وهم بذلك قد فهموا حقّ الفهم العبارة القائلة «الكتاب أهم وسيط في السياسة والعلم أنبل سفير للسلام»[2]، وعملوا بها.

إنَّ الاهتمام البليغ الذين أولاه العرب المسلمون للعلوم كلّها والآداب جميعها والفنون على أشكالها قد ولَّد حضارة راقية لا يخفى نورها على المستنير من الفريقين من عرب وعجم، وخلال مسيرة العرب في بناء المجد التليد، اتّصلوا بحضارات منها ما أوشك على الاندثار والاضمحلال، ومنها من كان قائما بكينونته وبذاته، وقد ساهمت اللغات المرتبطة بهذه الحضارات في نقل العلوم من وإلى اللغة العربية خاصّة خلال الفتوحات الإسلامية، حيث كانت اللغة العربية جديدة في الأقطار المفتوحة ومن هذه اللغات اللغة السريانية فقد «استعان العرب المسلمون بالسريان وبالأخصّ الشرقيين مثل: سمعان بن الطباخين وغيره في ترتيب أمور الدولة وتنظيم الأجهزة الإدارية وتنظيم الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية، ومن أشهر علماء السريان الذين أثّروا في المجال العلمي حنين بن اسحاق وأبي بشير ويوحنا بن جلاد ويحي بن عدي والكندي وآل بخيتشوع وغيرهم، الذين ألَّفوا وترجموا ونقلوا مختلف العلوم من طبية وفلكية

[1] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، تر:حامد يوسف أبو أحمد وآخرون، مركز الحضارة العربية، ط1، القاهرة، مصر، 2000، ص38، 39

[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص375

وعلمية، ومن اللغات السريانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية، فأتحفوا المكتبة العباسية بمصنفاتهم وعلومهم»[1].

إنَّ كل حضارة من الحضارات مهما بلغ عِزُّها لن تكون إلا مجرد ركام لحضارات سابقة عنها ومحصلة لثقافات عديدة، فتبلورت هذه الثقافات عبر الأزمنة والعصور لتصير حضارة فاعلة في وقت من الأوقات كالحضارات الشرقية القديمة والحضارة اليونانية والإغريقية، ويأتي عليها الدهر من جديد لتصير منطلقا لحضارات أخرى أكثر ازدهارا وتطورا من سابقاتها فما «الحضارة اليونانية إلاّ امتداد واقتباس للحضارة العربية القديمة في وادي الرافدين ووادي النيل، وبلاد الشام، فاليونانيون اقتبسوا من الحضارة العربية في شرقي البحر المتوسّط ومصر الشئ من مختلف العلوم، وعاد إلينا على أنه علم وطب يونانيَّان، ونُسِي الأصل أو تُنوسِيَ يقول ديورانت:"إنّ اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً، لأنَّ ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلّل المتلاف لذخيرة من الفنّ والعلم، مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التّجارة والحرب»[2].

ويصف ديورانت أيضاً حركة التاريخ الحضارية الدائمة فيقول:«ليس التاريخ إلاّ موكب الدول والحضارات التي تَنشأ وتَزدهر ثم تضمحّل وتفنى، ولكنّ كلاًّ منها تُخلِّف وراءها تُراثاً من العادات والأخلاق والفنون، تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها، فهي كالعدّائين في سباق يُسلِّم كلٌّ منهم مصباح الحياة إلى غيره»[3].

إنَّ المسار الذي تتخذه الحضارة طويل وغير منته، ومتعدد في الوقت ذاته، وقد ساهم معبر الشام والعراق في نقل الحضارة العربية الإسلامية أيام ازدهارها إلى الغرب الأوروبي، كما ساعد بشكل كبير في انتقال العلوم والمعارف سواءً من أو إلى الحضارة العربية الإسلامية، فلطالما شكّلت حضارة بلاد الرافدين أهمية عظمى في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفي هذا الشأن يُصرِّح جورج سارتن في كتابه"تاريخ العلم" قائلاً عن الحضارة اليونانية: «إنَّ المعجزة اليونانية لمزعومة لها أبٌ وأُمٌّ شَرعيَّان، أمَّا أبوها فهو تراث مصر القديمة، وأَمَّا أُمُّها فهي ذخيرة بلاد ما بين النَّهرين،

[1] سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية، ص69
[2] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص185
[3] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، نقلا عن ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة، الجزء9، ص312

والشرق القديم مهد الحضارات والمعلم الأول للبشرية في المجالين: المدنية المادية والعلوم كلّها، وفي المجال الرّوحي والمعتقدات الدينية»[1].

كان هذا أهمَّ معبر من معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبي ومهدها الأساس الذي نشأة وتَطوَّرت وازدهرت فيه، وسنتعرّض في المبحث الموالي إلى الحديث عن المعبر الثاني لهذه الحضارة العربية الإسلامية في وصولها إلى الغرب.

2_المبحث الثاني: معبر جزيرة صقلية(جنوب ايطاليا).

[1] المرجع نفسه، ص188

تعتبر جزيرة صقلية المعبر الثاني بعد العراق والشام في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبي، «وصقلية بالإيطالية تلفظ"سيشيليا" "Sicilia"، وهي أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط وهي منطقة ذاتية الحكم في ايطاليا... إسمها الرسمي هو "منطقة الحكم الذاتي الصقلية"، خلال معظم تاريخها كانت صقلية موقعا استراتيجياً هاماً، يعود ذلك في جزء كبير لأهميتها في الطرق التجارية المتوسطية وقد كانت الجزيرة دولة في حدّ ذاتها في إحدى مراحل تاريخها... صقلية اليوم إقليم حكم ذاتي في إيطاليا تبلغ مساحتها 25.708كم2، لتُكوّن بذلك أكبر الأقاليم الإيطالية مساحة، ويبلغ تعداد سكانها ما يزيد قليلاً عن خمسة ملايين نسمة، تمتلك صقلية ثقافة غنية وفريدة من نوعها وخاصة فيما يتعلّق بالفنون والموسيقى والأدب والمطبخ والعمارة واللغة، ازدهرت الزراعة والتجارة وفن العمارة في صقلية خلال الحكم الإسلامي لها»[1].

إنَّ لموقع جزيرة صقلية الاستراتيجي أثرٌ كبيرٌ في رغبة الدول المجاورة لها في الاستيلاء عليها «فهي تقع في حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي أكبر جزر ذلك البحر وتقع إلى الجنوب من إيطاليا ولا يفصلها عنها إلاّ مضيق صغير، وتبعد عن شمال إفريقيا بحوالي 160 كيلومترا، وهي مثلثة الأضلاع تقريبا»[2].

كما أنَّ لجزيرة صقلية تاريخ طويل مع الحروب والغزوات، فقد تداولت على هذه البلاد غارات عديدة من طرف دول متعددة من أوروبا وآسيا وإفريقيا فقد «خضعت جزيرة صقلية للحكم الروماني فترة طويلة من الزمن، إلى أن تمكّن القوط الشرقيون من الاستيلاء عليها في سنة 492م، ولكن لم تطل مدّة استيلاء القوط عليها، فقد تمكّن "بلزاريوس" قائد الإمبراطور الروماني "جستنيان" (527_565م) من إعادة صقلية إلى حوزة الدولة الرومانية، فانضمّت بذلك صقلية في سنة 535م إلى أملاك الإمبراطورية البزنطية»[3].

---

[1] ينظر: صقلّية، ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، من خلال الرابط:
https://ar.m.wipedia.arg/wiki/%D8%B5%D9%82%D9%84%D9%8A%D8%A9
رفع بتاريخ: 2018/03/25 على الساعة : (02:49) زوالاً.

[2] عدنان محمد زين سومي: رسالة دكتوراه في الدراسات العربية والحضارة الإسلامية، موسومة ب: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا، قسم اللغة العربية، جامعة جالا الإسلامية، ص4

[3] عدنان محمد زين سومي: أثر الحضارة الإسلامية في أوربا، ص4

هذا وقد توالت الغزوات على جزيرة صقلّية، «ففي سنة 652م غزا "معاوية بن حُديج" صقلية مُرسلاً من قبل "معاوية بن أبي سفيان" أيام إمارته على الشام زمن الخليفة الراشد "عثمان بن عفان"_رضي الله عنه_ وإنَّ تلك الحملة قد هجمت على معاقل الروم فيها ثم عادت، وفي سنة 666م، أرسل "معاوية بن حُديج" والي إفريقية "قيس بن عبد الله الفزاري" إليها في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر، وفي سنة 669م غزا عقبة بن نافع الروم في البحر ومن المؤكد أنّ تلك الحملة كانت على صقلية، وفي سنة 704م كانت الحملة عليها قادها "عبد الله بن موسى بن نصير" بأمر من أبيه "موسى بن نصير" وتَكلَّلَت بالنجاح، وتوالت الحملات إلى أن سقطت مدينة "بالرمو palermo" في أيدي المسلمين بقيادة "أسد بن الفرات"، الذي استشهد عند أسوار مدينة "سيراكوزه Siracusa" ثم افتتحت بقية مدن صقلية، وتَمّت السيطرة عليها نهائيا سنة 902م»[1].

تتمتع جزيرة صقلية بتراث حضاري عريق كونها كانت موطناً لحضارات عديدة، ولشعوب مختلفة فانصهرت كل هذه الحضارات والثقافات مع مرور الزمن لتشكّل التراث الحضاري والثقافي لهذه الجزيرة الفريدة من نوعها، ومع دخول العرب المسلمين أصبحت قطبا حضارياً وثقافياً هاماً يهاجر إليه أبناء أوروبا لطلب العلم والمعرفة ومن خلاله عبرت هذه الحضارة إلى المدن الإيطالية الأخرى، بل وأصبحت نقطة عبور تصل القارات الثلاث(الآسيوية والأوروبية والإفريقية).

أمَّا فيما يخصّ الطابع الجغرافي لجزيرة صقلية فهي تَتميَّز بتضاريسها الصعبة وموقعها الاستراتيجي المتميّز «فطبيعة صقلية تتكوّن من مرتفعات وهضبات، وتحتل مدنها الأجزاء العالية، مما جعلها حصينة عنيدة أمام كل فتح واتسمت بسمتين كان لهما أثرهما في تاريخها بصفة عامة: السمة الأولى موقعها البحري والثانية توسّطها بين أفريقيا وأوربا، وهي لهذا ملتقى حضارات جمّة، فينيقية، ويونانية، ورومانية، وقوطية وبيزنطية، وعربية»[2].

[1] المرجع نفسه، ص4
[2] أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص121

لقد كان فتح صقلية حدثاً حضارياً هاماً، فقد فتحها الأغالبة في ولاية إفريقية (تونس)، وقد كانت أول «خطوات الفتح الإسلامي قد بدأت مع استغاثة ثائر بصقلية على القسطنطينية، وهو"فيمي" الذي لجأ إلى بني الأغلب، فعهد "إبراهيم بن الأغلب" إلى "أسد بن الفرات" حيث قاد أسطولاً، في شهر ربيع الأول سنة 212ه، وجَابَهَ أهوالاً، ذابت أمام قوة المسلمين النفسية، وما إنْ فُتحت "بلرم" حتى صارت صقلية في أيدي المسلمين، وإن ظلَّ قسمها الشرقي القريب من القسطنطينية عنيداً، يُؤلِّب سائر القلاع المستسلمة على المسلمين، ثم سقطت "سرقوسة" وبعدها "طبرين"، وبقي معظم القسم الشرقي يكتفي بدفع الجزية فقط»[1].

ومن خلال هذه الحملة المجيدة «فتح العرب الأغالبة حكام تونس جزيرة صقلية التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية سنة 212ه/827م، وبقيت صقلية في أيدي المسلمين حتى استولى عليها النورمنديون في سنة 484ه/1091م»[2].

لقد كان لتوسّع الفتوحات الإسلامية أثر كبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية، فلولا هذا الدين الحنيف لما فَكَّرَ العرب في اختراق المسافات البعيدة واجتياز البحار والمحيطات، فكان بذلك الإسلام للعرب المسلمين خير دافع للتوسّع ونشر الدين الإسلامي أولاً ونشر الحضارة والثقافة العربية الإسلامية ثانياً، فقد أصبح العربي بتسامحه وأخلاقه النبيلة النابعة من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف خير قدوة ومَثَل في الأمصار المفتوحة من قِبَلِهِ، تقول المستشرقة "زيغريد هونكه" في هذا الشأن: «ومع أن الشعوب في البلدان المفتوحة_فيما عدا البربر والإسبان_ كان لها حضارات ومدنيات متوارثة، فقد كان للسيد العربي في نظر أغلبهم_إذا استثنينا المتعلمين من الفرس المعتدّين بأنفسهم_مكانة سامية، فلقد سحرهم العربي بأصالته وملاحة وجهه ولطف حديثه، فشرفه وكرامته المتوارثة أجبراهم على اتخاذه مثلاً أعلى يحتذونه بل ويتشوقون إلى مِثل مكانته الاجتماعية، بمعنى أن يُصبحوا عرباً مثله، وقد استطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات

[1] المرجع نفسه، ص121، 122
[2] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص38

وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد، فكسب بذلك لدينه عدداً وفيراً لم تكن أيَّة دعوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله»[1].

لقد كان خلق العربي الإسلامي أهم سبب في بلوغه أعلى المراتب أينما حلّ وحيثما نزل فقد ساهم ذلك عند فتح صقلية في قابليتها لاستقبال الدين الجديد وانتشار الإسلام فيها، فقد أعجب أهلها بكرم وسماحة وعدل الدين الجديد الوافد إليهم «فاستعدت هذه الجزيرة لاستقبال قيم جديدة، ودين جديد، وتمتع عبيدها بحياة جديدة في ظلّ النظم الإسلامية التي حكمت بين الناس بعدالة الله مما دفعهم لتقدير الإسلام والإقبال على اعتناقه، والتشرّف بمصاهرة المسلمين»[2].

هذا ولم يقتصر دور العرب المسلمين في صقلية على نشر الدين الإسلامي وحسب، بل كان لهم دور كبير في تطوير هذه البلاد، ومساعدة أهالي صقلية على التخلّص من الاسترقاق والعبودية، والجهل والأمية وساوى الإسلام بين الناس وِفقاً لعدالة الله سبحانه وتعالى، كما اهتم القادة المسلمون بالجوانب الاجتماعية للمواطن الصقلي كالزراعة والتجارة والثقافة، وسَمَوْ بالقيم الروحية وحفظوا للصقليين كل حقوقهم السياسية والاجتماعية والدينية...

لقد تميّزت فترة الحكم العربي الإسلامي لصقلية عن غيرها من فترات الحكم السابقة عنها، من الحكم الروماني إلى فترة حكم القوط الشرقيين لها، حتى أنّ العرب المسلمين قد ساهموا في بقاء الازدهار والتطوّر في جزيرة صقلية حتى بعد خروجهم منها في فترة حكم النورمانديين لها، فقد «اهتم الولاة العرب بالإصلاحات ونشروا ألوية العدل، وعَنوا بحفر الترع وترقية الزراعة، فزادت ثروة سكانها، وعَمَّت فيها الخيرات، وظَلَّ العرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالي الأصليين بشئ، فكلٌ منهم يمارس شعائر دينه، ويتّبع أسلوب معيشته، بل إنّ نساء صقلية تشبّهن بنساء العرب، فانتقبن النقب الملوَّنة، وانتعلن الأخفاف المذهّبة، ولبسن الحرير الموشّى بالذهب، وتَزينَّ بكل ما تَزَّين به المسلمات»[3].

[1] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص366 ،367
[2] أحمد علي الملاَّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص122
[3] أحمد علي الملاَّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص125

وليس هذا وحسب بل إنَّ «النفحة العربية التي هبّت نسماتها الزكية على ديار الايطاليين، علّمتهم كيف يسلكون سبل الحياة الكريمة، وعلّمت أبناءهم القراءة والكتابة، وشتّى العلوم، بعد أن كانوا أميّين وعلّمتهم الصناعات المختلفة، وأصول الزراعة والحياكة، وشاركهم العرب في ضروب التجارة التي درّت عليهم الثروات الطائلة»[1].

لقد اهتم السادة العرب في صقلية وفي غيرها من البلاد التي سرى فيها الفتح الإسلامي بالعلم، وعُنِيُوا أشدَّ العناية بالعوامل التي تساعد على انتشار العلم والمعرفة، يقول أحمد تيمور واصفا حركة الفتح الحضارية والفكرية في البلدان المفتوحة من قِبَل العرب المسلمين: «لمّاَ ألقوا عصا التيّار، واطمأنّت بهم الدار، لم يلبثوا أن نشطوا للفتح الثاني، وهو الفتح العلمي، فأَتوا في الفتحين على قِصَرِ المدّة، بما لم يسبق له مثيل في الأمم السالفة، وكان من ذلك أنّهم ملكوا ناصية العِلم كما ملكوا ناصية العَالَم»[2].

اعتبرت فترة حكم العرب المسلمين لصقلية هي الفترة الأهم في تاريخ هذه الجزيرة الجميلة، فقد أدى المسلمون واجبهم المنوط بهم في النهوض بالعنصر البشري الصقلي، فقد دام حكم العرب المسلمون لجزيرة صقلية «ما يقارب 260سنة مابين سنة831م إلى 1092م، إلاّ أن مؤثراتهم الحضارية فيها بقيت مستمرة إلى حوالي مائتي سنة أخرى، وقد امتد التفاعل الحضاري بين العرب والصقليين والأوربيين إلى خمسة قرون في أوسع مدى حضاري، ومن الملاحظ أَنَّ انتهاء الحكم الإسلامي في صقلية لا يَعني مُطلقاً انتهاء حضارة العرب والمسلمين، بل بقيت الحضارة العربية الإسلامية مؤثرة وفاعلة في صقلية، وبقيَّة المناطق الإيطالية وبالتالي الأوروبية»[3].

لقد ساهم التسامح العربي الإسلامي مع أهالي الأقطار المفتوحة في خلق الجوّ الملائم للتعايش والتواصل بين الأطراف الفاعلة في بناء الحضارة، فقد امتاز الولاة العرب المسلمين بأن تركوا «لأهالي صقلية الأصليين عاداتهم وقوانينهم، وحُرِّيتهم الدينية، وحافظوا على جميع الكنائس التي وجدوها، واهتموا بالزراعة والصناعة، وأنشأوا مصانع الورق، وامتدت هذه المصانع من صقلية إلى إيطاليا، واستخرج العرب

[1] المرجع نفسه، ص125
[2] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص439
[3] ينظر: عدنان محمد زين سومي، أثر الحضارة الإسلامية في أوربا،ص4

الذهب والفِضّة والحديد والرصاص، وعلّموا أهالي صقلية صناعة الحرير كما اهتموا بالتجارة»[1].

ونظراً للمكانة التي حازت عليها جزيرة صقلية في نفوس العرب المسلمين فإنَّها «شهدت شيئاً من التنافس بين العباسيين والفاطميين، فانتقل الحُكم خلاله من يد الأغالبة إلى "بني أبي الحسين" الملقبين ب"الكلبيين"، حيث ارتبطت صقلية بالخلافة الفاطمية ارتباطاً وثيقاً، وعرفت صقلية من الكلبيين عشرة ولاة طيلة خمسة وتسعين سنة، نشطت خلالها القطاعات العمرانية والثقافية، مع هدوء وأمن اجتماعيين عادا على البلاد بالنمو الفكري والتقدم الحضاري، ممّا مهد لصقلية أن تتزعّم حركة فكرية كبرى، تنافس مثيلتها في الأندلس ومصر والقيروان، بَل قُدِّر لها أحياناً أن تحتل الصدارة بالنسبة لسائر المراكز الإسلامية»[2].

إنّ جزيرة صقلية قد كانت قبل الفتح العربي الإسلامي «ترزخ تحت الحروب والفتن ولكن ما لبثت أن انطفأت جذوة الحروب حتى ازدهرت علوم الفقه والحديث واللغة والفلسفة والطبيعة والهندسة والنجوم والطب، فقد أنشأ العرب في صقلية وخاصة في "بالرمو" التي اتخذوها عاصمة لهم مدرسة للطب، وعلى غرارها أُنشئت مدارس للطب في إيطاليا»[3].

مثلت جزيرة صقلية _عبر تاريخها الزاهر خلال الحكم العربي الإسلامي لها_ همزة وصل هامّة في الربط بين الحضارة الأوروبية الناشئة وبين الحضارة العربية الساطعة المتميّزة، فقد تعلّم الأوربيون في مدارس عربية علوماً شتى ومعارف متعدّدة، فقد برز في جزيرة صقلية بالذات «جملة من العلماء والمُحَدِّثين والفقهاء والأدباء والفلاسفة وكان في طليعتهم "أسد بن الفرات" وهو من أصحاب مالك، وأسد ابن الحرث (صاحب الأسديات في الفقه)، والقاضي "ميمون بن عمر"، و"ابن حمديس الصقلي"(الشاعر المبدع)، ومن رجال صقلية "أبو عرب الصقلِّي وابن بشرون وابن الفحَّام والشريف الإدريسي وابن طغر والحسن بن يحي المعروف ب"ابن الجزار" وهو صاحب (تاريخ صقلية)"، كما ترك العرب أيضا ألفاظا عربية في اللغة الصقلية

[1] أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص123
[2] ينظر: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص123
[3] رمضان الصبّاغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص292

والإيطالية، ولا تزال مدن وأماكن كثيرة من صقلية تحمل أسماء عربية، لاسيما القلاع والمراسي والشوارع»[1].

انتقلت صقلية بعد حكم الكلبيين إلى حكم أمراء الطوائف، فبدأ التنافس وشهدت صقلية في هذه الفترة اختلافات بين القادة العرب، فسقطت إثر ذلك صقلية في أيدي النورمان «الذين كانوا على شوق لفتح صقلية، فاستولوا على "مسنية" سنة1016م، ثم هفتت قلوبهم إلى "بلرم" وتمت الفترة الأولى من الفتح سنة1072م، وبعدها بعشرين عاما تم الاستيلاء على الجزيرة»[2].

لم يكن الحكام الجدد لصقلية_أي النورمانيين_ بمعادين للإسلام بل على العكس من ذلك، فقد «ساروا على نهج العرب في التسامح وتنشيط الحركة العقلية، فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم واستعملوا فريقا كبيرا منهم في حروبهم وحاشيتهم، فكان منهم القواد والعلماء، وظلّت اللغة العربية لغة رسمية في الجزيرة طوال حكم النورمان»[3].

لم تنته الحضارة العربية الإسلامية في صقلية مع انتهاء فترة حكم المسلمين لها، بل بقيت مؤثّرة وفاعلة وقد حازت هذه الحضارة الراقية بعلومها وفنونها وآدابها وعاداتها وتقاليدها على اندهاش النورمان وتأثّرهم بها، فحرصوا كل الحرص الحفاظ على الحضارة العربية الإسلامية في صقلية، وأولوا العلماء المسلمين أهمية كبيرة، فساد الأمن في هذه الجزيرة، بحيث ساعد على تواصل العطاء الفكري العربي الإسلامي فيها، فقد «تيسّر لملك صقلية "روجر الأول" أن يَتَّكِئَ على أعمدة الاطمئنان، ويشرع في حكم الجزيرة، ومعاملة المسلمين- وخاصة علماؤهم_ معاملة حسنة عادت بالخير لا على الجزيرة فحسب بل على الحضارة الأوربية بأسرها»[4].

لقد كسبت اللغة العربية في جزيرة صقلية مكانة مقدّسة، فقد استعملها النورمان في شتى معاملاتهم الاجتماعية والاقتصادية وحتى الدينية «فقد كتب "روجر الأول"(1061م_1101م) مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية، وامتازت

[1] أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص123
[2] المرجع نفسه، ص123
[3] رمضان الصبّاغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص292
[4] أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص123

النقود التي سلكها هذا الملك بأنّ وجهها جاء مكتوبا عليه بالعربية والوجه الآخر مكتوبا عليه باللاتينية واليونانية، كما أنّ بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية، وقد استعان خلفاء "روجر" على "سنته" فاستعان "روجر الثاني" (1129م_1154م) بعلماء من العرب، كما درس "وليم الثاني" (1166م_1174م) اللغة العربية ورجع إلى مستشاريه من العرب في أهمّ شؤونه، وقد ارتدى ملوك صقلية رداء من الحرير مطرزاً بكتابات عربية بالخط الكوفي، يرجع تاريخها إلى سنة 1133م، كذلك اتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حُرَّاساً من العرب ارتدوا زِيًّا اختلف عن زي الحراس النورمان»[1].

وليس هذا وحسب فالشعر العربي من بين الأشياء الكثيرة التي تأثّر بها النورمانيين من الحضارة العربية الإسلامية، ومن خلال التَأثُّر بالشعر العربي ظهر الشعر الصقلي، فقد «كان الشعر العربي يمارس في بلاط ملوك صقلية النورمان، وقد برزت المدرسة الصقلية في الشعر في عهد الإمبراطور "فردريك الثاني" في القرن الثاني عشر لإحاطته نفسه بمظاهر شرقية عربية، حيث إنّه تعلّم اللغة العربية وشجّع ترجمة الكتب العربية كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب»[2].

لقد أيقن الملوك النورمان الحاجة الماسَّة التي تُشكِّلُتها حضارة مزدهرة كحضارة العرب المسلمين، فقد حرص هؤلاء الملوك طوال فترة حكمهم لصقلية على العناية بالعرب المسلمين، وخاصة الفئة المثقفة منهم التي تُشكِّلُ_ بالنسبة لهم_ عنصراً هاماً يربطهم بالحضارة «وتَجدُر الإشارة إلى أنّ المسلمين رغم ذهاب الحكم من بين أيديهم، لم يبخلوا على الإنسانية بمواصلة ما بدأوه... وأضافوا إلى ما أنتجوا من ثمار، ما إستحقوا به أن يَتولَّوا زمام الفكر قروناً عدّة»[3].

تواصل العطاء الفكري العربي الإسلامي في صقلية وفي إيطاليا وإسبانيا ومنه انتقل إلى أوروبا بعد ذلك مِّما ساهم في النهضة الأوروبية الحديثة، فحتى مع خروج المسلمين من صقلية «لم ينقطع سيل الكتب والعلماء عن غزو صقلية، بل لقد ظلّت هذه الجزيرة تستورد الكتب والعلماء من الخارج، وساعد ذلك تسامح النورمان إزاء

[1] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص39
[2] المرجع السابق، ص39
[3] أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص123

المسلمين، ومساعدتهم، فقد استحضروا الكتب الجغرافية المؤلفة بالعربية أو المترجمة إليها من اليونانية وعلى سبيل المثال نجد كتاب"العجائب" ل"المسعودي"، وكتاب"الجغرافية" ل"بطليموس ورسيوس" وفي أيام "غليوم الثاني" ازدهرت حركة الترجمة سواءً من العربية أو اليونانية... وكان "يوجين البالرمي" من أشهر المترجمين عن العربية الذي تَرجَم إلى اللاتينية كتاب"المجسطي" و"المناظر" ل"بطليموس" وكتاب"كليلة ودمنة"»[1].

ترك العرب في جزيرة "صقلية" آثاراً فكرية وتاريخية وعمرانية دالَّة على الحضارة العربية الإسلامية، كما انتقلت عبر حركة الترجمة «ألفاظ عربية كثيرة إلى اللغة الإيطالية، كما لا تزال مدن وأماكن في صقلية تحمل أسماءً عربية، لاسيما أسماء القلاع والمراسي والشوارع، وقد تحدّث الرحّالة العربي الشهير"ابن جبير" عن آثار العرب في صقلية، وخاصة مساجدهم وأسواقهم، ويذكر أنّ "وليم" ملك صقلية الذي سمّاه "غليام" كان شديد الثقة بالمسلمين، وسَاكنٌ إليهِم في أحواله، والمُهِمُ من أشغاله، وله جملة منهم هم أهل دولته وخاصّته، وعليهم يَلوح رونق مملكته، ومن أغرب ما ذكره "ابن جبير" عن هذا الملك معرفته باللغة العربية (قراءة وكتابة)، وأنّ شِعارُه "الحمد لله حق حمده"، وكان شِعار أبيه "الحمد لله شكراً لأنعمه"»[2].

لقد تفاعل العرب مع ملوك صقلية بشكل حضاري لا مثيل له في تاريخ الشعوب والأمم، «فقد حَرِص الملك "روجر الأول" منذ تولّيه حكم صقلية على الإقتداء بالعرب والمسلمين والاستمرار في مسألة الانفتاح والتفاعل الحضاري بين الجانبين وقد رفض هذا الملك الاشتراك في حَملات الإفرنج المعروفة بالحملات الصليبية على الشرق العربي رغم إلحاح البابا، كما أنه قد منع المسلمين من التمرد عن دينهم الإسلام...كما أنه شجّع العلم والفنون وساعد على ازدهار الثقافتين اليونانية والعربية وامتزاجهما، كما ساهم "روجر الثاني" بما لديه من اطلاع واسع على علوم وحضارة وثقافة العرب، وتسامحه المماثل لتسامح وعدل المسلمين في تفاعل وامتزاج الحضارتين العربية

[1] رمضان الصبّاغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص292 ،293
[2] ينظر: أحمد علي الملاّ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص123، 124

والأوروبية في هذه الجزيرة والتي سهّلت بعد ذلك انتقال الحضارة العربية والإسلامية إلى عدّة دول أوروبية»[1].

لقد شَكَّلت جزيرة صقلية معبراً أساسياً في انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبي، ومع أنَّ الفتح يبدأ أغلب الأحيان عسكرياً إلاَّ أنَّه يتحوّل إلى فتح حضاري وثقافي، ولا تزال جزيرة صقلية إلى اليوم تحمل في جوفها سحر الروح العربية الإسلامية، التي تتمثَّل في مظاهر متعدّدة اجتماعية وثقافية وعمرانية لجزيرة صقلّية، وحتى يومنا هذا يوجد هناك علاقات تجمع بين إيطاليا_كونها قد ضمّت الجزيرة إلى حكمها_والبلدان العربية والإسلامية، وخاصة مع الشمال الإفريقي، حيث يشكّل القرب الجغرافي بينهما عاملاً مساعداً في توطيد العلاقات وإحياء التراث الإسلامي في هذه الجزيرة المميزة.

3_المبحث الثالث: معبر الأندلس(اسبانيا).

تعتبر الأندلس ثالث معبر وأهمه في انتقال الحضارة العربية الإسلامية من الشرق إلى الغرب ومن العالم العربي المزدهر إلى عالمٍ غربيٍ يسيطر عليه الجهل والأمية والفقر والفساد والفوضى.

لقد أَطلق العربُ المسلمون اسم "الأندلس" على منطقةٍ انضوت تحت لواء حكمهم لمدّة ثمانية قرون من الزمن، وهذه البلاد هي جُزء لا يتجزأ من شبه الجزيرة الإيبيرية الممتدّة الأطرف، وقد تعدّدَت أسماءها فقد «عرفت شبه الجزيرة الإيبيرية، أي إسبانيا والبرتغال في الأزمنة القديمة ب(إيبارية)، وعندما جاء الرومان أطلقوا عليه اسم (Hispania)ومن هنا جاء اللفظ العربي (إشبانية) أو (إصبانية)، وقد تحوّل هذا اللفظ في لغة القرون الوسطى الرومانسية إلى (Espana)، أما مصطلح "الأندلس"، الذي يَشمل المناطق التي حكمها العرب والمسلمون من شبه الجزيرة، فقد اشتقّه الجغرافيون والمؤرخون العرب من الكلمات الآتية: "الأندليش" أو "الأندلش" أو "الأندلس"، وهي

[1] ينظر: عدنان محمد زين سومي، أثر الحضارة الإسلامية في أوربا، ص5 ،6

الأسماء التي سُمّيَ بها الوندال الذين سيطروا على أجزاء من شبه الجزيرة الآيبيرية في الفترة من (408_429م)»[1].

وتاريخ الأندلس -قبل الفتح الإسلامي لها-طويل مع الحروب والغزوات، وقد كانت تُعرف أنذاك بإيبيريا «فقد خضعت الأندلس للدولة الرومانية زمناً طويلاً حتى إجتاحتها القبائل الجرمانية في موجات متتالية إلى أن استقرَّ بها القوط الغربيون، واضمحلَّت الأندلس(التي كانت تعرف آنذاك بإيبيريا) في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي، إذْ أنَّ ملوكها القوط استنفذوا كل موارد البلاد، وأمّا الشعب، فقد كان يحيا حياة الفقر الشنيع على نقيض ما كان يتمتع به النبلاء، ومع أنَّ الملكية القوطية كانت تَجمع بين الوحدة الدينية والسياسية، فقد ظهر المجتمع الإسباني إذْ ذَاكَ مُفكّكاً وانقسم إلى طبقتين تفصل بينهما هوّة سحيقة الأولى طبقة الحُكَّام النبلاء المتمتعين بكافة المَزايَا والامتيازات الاجتماعية والثانية قوامها العناصر الشعبية التي تأصَّلت فيها الصبغة الرومانية»[2].

أَمَّا من «حيث النظام السياسي فقد ساد العنصر الجرماني، أمَّا العنصر الروماني فقد ساد في نظامه الفكري والفنّي، وما لَبث القوط أَنْ نَسوا لغتهم أمام قوة اللغة اللاتينية، ونبذو المذهب الآري، وامتثلوا للمحافل الكَنسية لقاء القوة المعنوية التي كانت تعوزهم، ولم تجد محاولات الملك "غيطشة" اليائسة في نشر السلام والرَّخَاء لإصلاح المجتمع الإسباني، بل أصبح تَفَكُّك البِلاد أمراً محتوماً لابدَّ من وقوعه أمام انعدام القيادة السياسية وانهيار البناء الاجتماعي»[3].

لم تكن شبه الجزيرة الإيبيرية أو ما يطلق عليه اليوم اسم "إسبانيا" بأحسن أحوالها عندما فتحها العرب المسلمون، فالعرب لم يَأتوا ليَهدموا حضارة كانت قائمةً قبلهم، بل على العكس من ذلك فكل المؤشرات كانت تُشير إلى أَنَّ هذه الجزيرة كانت آيلة إلى التدهور وسوء الأحوال «فعدم التكافل الاجتماعي الذي كان يسود في دولة القوط الغربيين، والتضييق الذي لحق باليهود، والظروف التعيسة التي كان يعيش في ظِلَّها العبيد والعديد من أفراد الطبقة العامّة، أدَّت إلى تفكيك المجتمع وانهياره، يضاف إلى

---

[1] خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، ط1، بنغازي، ليبيا، يناير 2000، ص11

[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، الدار الثقافية للنشر، ط1، القاهرة، مصر، 1429ه/2008م، ص7

[3] المرجع نفسه، ص7

ذلك أنّ حالة العصيان والمؤامرات المستمرّة التي كان يقوم بها النبلاء من أجل الوصول إلى العرش، أو الانسلاخ عن المملكة والحصول على الاستقلال، أنهكت البلاد وأوصلتها إلى حالة يرثى لها من التَردِّي والضُعف، ولقد حدث قبل الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا بسنة واحدة تقريبا أقوى وأقسى تَنافس على السلطة في البلاد، ممّا زادَ في حالة الضّعف والتَفكُّك وسهَّلَ أمر القضاء على دولة القوط الغربيين»[1].

لقد حاول أحد الملوك القوطيين وهو «"الملك غيطشة" "Witiza"(702_710م) ما وسعه أن يُصلح الأمور ويُخفّف من التَأثير السيِّء الذي تركه أبوه "أخيكا"، فمال إلى انصاف الناس من استبداد نبلاء القوط، وأحبَّ في آخر أيامه أن يرفع القيود عن اليهود فكرهه النبلاء ورجال الدين، الذين أبعدهم عن نفسه، وحرمهم من بعض امتيازاتهم وفرّق شملهم، فأخذ النبلاء يثورون عليه في نواحي البلاد المختلفة وتآمر عليه أهله...توفي "غيطشة" في حدود سنة 710م، والبلد منشق على نفسه مفرّق بين رجال الدين وكبار النبلاء الطامعين»[2].

انتهى الأمر بالحكم القوطي في إسبانيا إلى «وثوب أحد قادة الجيش ويُعرف ب"لذريق" أو"رودريجو Roderic" على العرش وتودُّدِه لمجلس البلاد الذي أفتى بخلع الملك الشرعي وتولية "لذريق" أمر الملك فأدى ذلك إلى إثارة النفوس بين النبلاء الذين أخذوا يترقبون الفرصة المواتية للقضاء على "لذريق" المغتصب»[3].

أدَّى اغتصاب "لذريق" للحكم الملَكي من الوريث الشرعي له وهو ابن الملك غيطشه "أخيلا" الملقَّب ب"وقلة" إلى إثارة النفوس بين النبلاء الذين اعتبروا الملِك لِذريق خارجاً عن القانون ومُغتصباً للشرعية الملكية في البلاد، «فقد بَدأَ هذا الأخير حُكمَه بالاستيلاءِ على خزائِن أسلافه الملوك مما أدّى ب"لذريق" إلى مجابهة انتشار الفوضى والانقسام والفساد في المملكة، فقد ثارت الثورات وحركات التمرّد من قبل العبيد الذين كانوا يُمثِّلون الغالبية العُظمى من الجيش القوطي، وقد سهّل هذا الأمر على

[1] خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص20
[2] ينظر: خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص20 ،21
[3] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص7

العرب المسلمين دخول الأندلس بحماستهم المتدفقة، وكلمتهم الموحّدة في سبيل نشر مبادئ الحق والعدل وتحرير الشعوب من الظلم والفساد»[1].

أدّى انقسام مملكة القوط الغربيين بالملك لذريق المغتصب إلى مجابهة الزحف العربي لوحده ورغم جهوده العسكرية إلاّ أنه باء بالفشل نتيجة لحكمه الجائر والمتعسف للبلاد التي نصّب نفسه حاكما عليها.

وكما حدث مع جزيرة صقلّية فإنّ الفتح الإسلامي للأندلس كان أيضاً حملة نجدة وإغاثة، فمِمَّا جاءت به المصادر التاريخية «أنَّ مدينة "سبتة" المغربية كانت خاضعة لحاكم قوطي غربي يُدعي"يليان" وعند اغتصاب لذريق لعرش إسبانيا هرب ابن الملك المخلوع "غيطشة" إلى "سبتة" ويُدعى "وقلة"، وحَثَّ "يليان" على مساعدته لاسترجاع مُلك أبيه، وكان "يليان" ضعيفاً لا يستطيع مواجهة "لذريق" فاضطُرَّ للاتصال "بطارق بن زياد" والي "طنجة" من قبل "موسى بن نصير" فما كان من طارق إلاّ أن أبلغ "موسى بن نصير" بذلك، فرحّب موسى بذلك، إذ كان يطمع بمزيد من الفتح والجهاد فكتب موسى إلى الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" يبلغه بما ذكره "يليان" من تذليل مهمة موسى في فتح الأندلس، لكن الوليد تردّد في الأمر وخاف على المسلمين أن يغرر بهم موسى في بحر شديد الأهوال، وأمر موسى أن يتروّى في الأمر وأن يختبر هذه البلاد أولا بالسرايا، فسيّر موسى أولا قائداً من قواده يقال له "طريف بن مالك المعافري" على سريّة من خمسمائة مقاتل أعدّ لهم "يليان" السفن فعبروا الزقاق ونزلوا بجزيرة "لاس بالوماس" الواقعة على مقربة من مدينة "طريف" الحالية التي سمّيت باسمه لنزوله فيها وذلك في رمضان سنة91ه/710م، وعاد "طريف" من غزوته ظافراً غانما، فأمن موسى بن نصير إلى "يليان" واستوثق منه واشتدّ عزمه على فتح الأندلس»[2]، و أوكل موسى مهمّة الفتح إلى طارق بن زياد.

هذا وقد اختلفت المصادر في طبيعة الحوادث وتواريخها وفي الأسباب التي دعت العرب المسلمين إلى فتح الأندلس، فبعض المصادر أرجعت السبب إلى أنّ الكونت "يليان" أو "جوليان Julian" حاكم "سبتة" قد شَجَّع العرب على الفتح انتقاماً لنفسه من

[1] ينظر: خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص21، 22
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص7

"لذريق" مَلِك إسبانيا الذي اعتدى على شرف ابنته... وقد دفعه حقده هذا إلى التوجُّه إلى موسى بن نصير وحثِّه على فتح إسبانيا، وتذكر روايات أخرى أنه سار إلى "طارق بن زياد" حاكم مدينة "طنجة" وأعلمه برغبته في الانتقام واستعداده لمساعدة العرب في حرب القوط الغربيين»[1].

وليس هذا وحسب بل هناك «رواية أخرى مفادها أَنَّ أولاد "غيطشة" هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى فتح إسبانيا، ومساعدتهم في إعادة مُلكهم المفقود، وأنَّ الفتح العربي ونَجاحِه كان نتيجة لهذا الاتصال، كما تشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى مباحثات جرت في "طنجة" قبيل الفتح بين "طارق بن زياد" وأحد أولاد "غيطشة"، بينما يقول آخرون أنّ هذه المباحثات حدثت قبيل بدء المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد وجيش القوط بوقت قصير، وذلك عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا»[2].

مهما تعددت الأسباب والمُسبِّبَات فَإِنَّ الفتح العربي الإسلامي ارتكز على هدف أسمى وهو جوهر كل الفتوحات الإسلامية وهو نشر الدين الإسلامي الحنيف وإعلاء كلمة الله الواحد والرسالة المحمدية أولاً ونشر الحضارة والثقافة والأخلاق والمُثُلِ العليا ثانياً.

لقد نقل طارق بن زياد الفتوحات العربية الإسلامية من إفريقيا إلى إسبانيا، «فالنتائج المرضية التي حقّقتها مهمة "طريف" شجّعت طارقا على المضي في خطّته بالفتح، فقرّر أن يقود بنفسه الحملة المقبلة التي كانت تتألف من اثني عشر ألف رجل من مقاتلي العرب والبربر والمسلمين، وكانت نسبة البربر المشاركين في هذه الحملة عالية نظراً لاعتناقهم الإسلام وانتظامهم في الجيش، وكان معظم المقاتلين من العرب قد رجعوا إلى "القيروان" مع "موسى بن نصير"، ولم يبقَ مع "طارق بن زياد" إلاّ عدد قليل من العرب من أجل أن يعلِّموا البربر مبادئ وتعاليم الإسلام»[3].

عبر القائد "طارق بن زياد" مع جيشه من مدينة "سبتة" مُستخدماً مَراكب تجارية قَدَّمها "يليان" حاكم "سبتة"، بالإضافة إلى سفن عربية كانت تنتجها دار صناعة السفن

[1] خليل إبراهيم السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص24 ،25
[2] المرجع نفسه، ص26
[3] المرجع نفسه، ص29

في تونس «فنزلت حملة طارق على صخرة تسمّى "جبل كالبي" (Mons calpe)، التي اتخذت اسم طارق منذ ذلك اليوم، فأصبحت تسمى ب"جبل طارق"...هذا وقد نزل طارق على الشاطئ الإسباني في رجب 92ه/نيسان 711م، وأقام طارق عدّة أيام في الجبل الذي اتّخذه قاعدة لعملياته العسكرية التي بدأت بفتح "الجزيرة الخضراء" والمناطق المجاورة من أجل السيطرة على المضيق وحماية خطوطه الخلفية وتأمين اتصالاته بشمال إفريقيا»[1].

لقد دام وصول المسلمين إلى إسبانيا نحو شهرين ونصف قبل أن تقع المعركة الفاصلة مع "لذريق" في "كورة شذونة" «وكان لذريق وقتها مشغولاً بإخماد ثورة في شمال إسبانيا قام بها "البشكنس" في "نبيلونة" فترك هذه العمليات الحربية سريعاً وبادر بالعودة إلى عاصمته "طليطلة" وخرج من هناك بجيوش كثيفة بلغت عُدَّتها نحو مائة ألف مقاتل، وقيل سبعون ألفاً وقيل أربعون ألفاً»[2].

اشتبكت قوات لذريق مع قوات المسلمين «في 28 من رمضان سنة92ه/حزيران711م، في موضعٍ يقع على وادي "لكَّة" بالقرب من "شذونة" في قِتال عنيف دام أياماً وانتهى بهزيمة لذريق، وأحدث انتصارُ طارق في وادي "لكّة" دوياً هائلاً في المغرب والمشرق»[3].

لقد شَكَّل انتصار "طارق بن زياد" على "لذريق" فتحاً عظيماً وحافزاً هاماً للجيوش العربية الإسلامية «فاندفعت جيوش المسلمين في إثر فلول القوط تستولي على المدن وفتتح المعاقل حتى وصلت إلى "طليطلة" العاصمة فدخلتها سنة 93م، ثم عبر "موسى بن نصير" إلى الأندلس بجيش ضخم يَتألف من 18 ألف مقاتل من العرب، وتعاون هو وطارق على افتتاح بقية الأندلس، حتى أشرف القائدان على جبال "البرت" المُطلَّة على بلاد الغال»[4].

استمرّت الفتوحات الإسلامية في بلاد الأندلس، وتوسَّع الولاة العرب في جنوبي فرنسا وبسطوا سلطانهم على كل الأقاليم المجاورة لشبه الجزيرة الآيبيرية «فرأى أهل

---

[1] خليل إبراهيم السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص30 ،31
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ص8 ،9
[3] المرجع نفسه، ص9
[4] المرجع نفسه، ص9

الأندلس المسلمين إخوانا لهم في الدين واتصلوا بهم اتصال المُستغيث وهكذا هُيِّءَ فتح الأندلس بتعاون كامل بين المسلمين من عرب وأمازيغ في الضفة المغربية وأهل الأندلس الأصليين في الضفّة الأندلسية، ممّا سهّل تحرير شبه الجزيرة الايبيرية من سيطرة القوط وأهل التثليث في ظرف لم يتعدَ ثلاث سنين، وذلك من سنة92 إلى95ه_711إلى 714م... لدرجة أنّ بعض المفكرين الإسبان المعاصرين نعتوا هذا الفتح الإسلامي للأندلس بثورة إسلامية في الغرب»[1].

لقد دخل العرب المسلمون الأندلس ووجدوها كبقية البلاد الأوروبية الأخرى، غارقة في الجهل والفوضى والحروب الطاحنة بين مختلف طبقات المجتمع، فقد سيطرت الطبقية على هذه البلاد وراح يأكل كبيرها صغيرها وقويّها ضعيفها، كما استولى رجال الكنيسة وطبقة النبلاء على خيرات تلك البلاد، وافتقر بقية العامة من الشعب، مما ساعد على ظهور الآفات الاجتماعية من نهب وسرقة واعتداءات، فلم يقبل العرب المسلمون بهذا الوضع المُزري وما إن لبثوا في الأندلس حتى انتقلوا إلى الاهتمام بكل ما من سعيه أن يُوفِّر حياة كريمة لأهالي الأندلس، «فاتجهوا نحو إحياء الأرض الميّتة وتعمير المدن الخَرِبة وتنشيط التجارة الرَّاكدة وإنعاش الصناعة المتأخرة، حتى أصبحت الأندلس في ظِلِّ خلافة قرطبة أغنى الأقطار الأوروبية وأكثرها ازدحاماً بالسكان»[2].

هذا وبعد الفتح العظيم الذي أحرزه القائد "طارق بن زياد" مع صديقه "موسى بن نصير" عاد موسى بن نصير إلى دمشق لأمر من الخليفة «واستخلف على الأندلس ابنه "عبد العزيز" واختار له "اشبيلية" عاصمة له، وفي عهد "عبد العزيز" تمّ للمسلمين فتح بلاد غرب الأندلس سنة 95ه/714م، وشرق وجنوب شرق الأندلس في سنة 97ه، واتَّجه بعد ذلك إلى تنظيم البلاد وإدارة شؤونها...وضبط سلطانها وسَدِّ ثُغورها وافتتح في ولايته بعض المدن التي لم يتم فتحها في عهد أبيه، وكان متسامحاً في الدين فشجّع مصاهرة الإسبان بتزوجه "أم عاصم" زوجة "لذريق"، ويعدّ "عبد العزيز" من خيرة

[1] علي المنتصر الكتاني: انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1426ه/2005م، ص30
[2] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص34

ولاة المسلمين إلاَّ أنَّ مدّة حكمه لم تَطل لأنّ قادته وثبوا عليه فقتلوه وذلك بإيعاز من الخليفة الأموي "سليمان بن عبد الملك"»[1].

هذا وقد توالى على الخلافة في «الأندلس بعد عبد العزيز سبعة عشر واليا من قبل صاحب إفريقية وذلك في ستة وأربعين عاما أولهم "أيوب بن حبيب اللخمي" الذي نقل حاضرة الأندلس من "أشبيلية" إلى "قرطبة"»[2].

تُعتبر ظاهرة تَعدُّدِ الولاة في الأندلس مؤشراً على وجود النزاعات العربية_العربية، وهذا أمر طبيعي لأنّ العصبية القبلية كانت لا تزال تسيطر على المجتمعات العربية ففي المشرق «نجحت الدعوة العباسية بالثورة على بني أميّة مستعينة بالموالي والمعارضين لبني أميّة وما إن حلّ عام 132ه/749م، حتى سقطت الخلافة الأموية في دمشق وراح العباسيون يطاردون بني أمية في جميع الأمصار، ويفتكون بهم، واستطاع أحد الأمويين وهو "عبد الرحمان بن معاوية بن هشام" أن يهرب من وجههم ويخترق الحدود حتى يصل إلى إفريقيا، ويعبرها إلى الأندلس سنة138ه/755م، وقد أطلق عليه "الداخل"، وقد كان ذكيا واعيا، خاصة عندما وجد الصراع على أشدّه بين اليمنيين والقيسيين، واستطاع بحكمته أن يستميل الطرفين ويبايعه الكثيرون من الجنود والقادة، وتضخّم عدد أنصاره واستمال قلوب الرعية بحسن سياسته، حتى انقاد له كافة العرب هناك»[3].

هذا وقد حاول الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أن ينال منه لكنه فشِل فشلاً ذريعاً، «فصرف المنصور بعدها النظر عن فكرة استعادة الأندلس من الأمويين وأبدى إعجابه بشجاعة عبد الرحمان، وقال: "إنّ صقر قريش هو هذا الأمير الشجاع عبد الرحمان الذي ذهب إلى الأندلس شريداً طريداً واستطاع بذكائه وشجاعته أن يؤسس هناك ملكا عريضا"، ومنذ ذلك الوقت لقّب "عبد الرحمان" بلقب "صقر قريش"»[4].

وبعد هذه الواقعة اختفى العداء المكنون بين الأمويين والعباسيين واتجه أمراء بني أميَّة إلى البناء والتشييد وصقل الحضارة العربية الإسلامية، «ولعلّ أهم هؤلاء الأمراء

---

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص9 ،10

[2] المرجع نفسه، ص10

[3] المرجع نفسه، ص11

[4] ينظر: إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل، ط1، بيروت، لبنان، 1989 ،ص33

"عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل"، الذي حكم ما بين(206_237ه)، وقد نجح بسبب طول مدّة حكمه أن يقيم علاقات قويّة مع الدولة البيزنطية وأن ينطلق بالدولة إلى آفاق حضارية عظيمة، فاهتمّ بالبناء والتشييد وأقام المساجد في جميع أنحاء الأندلس، وعرفت الأندلس في عهده لأوّل مرّة فناً جديداً هو فنّ الموسيقى والموشّحات الغنائية، وقد أصبحت مدن الأندلس مهوى أفئدة المشرقيين من علماء وموسيقيين، ومن هؤلاء المغني المعروف "زرياب"، و"عباس بن فرناس" المعروف بخبرته بعلم الكيمياء والطيران»[1].

تعتبر المعابر الثلاثة المذكورة أهم المعابر التي ساهمت وبشكل فعّال في انتقال الحضارة العربية الإسلامية من الشرق إلى الغرب، وليس كما هو متداول عند الغرب الأوروبي اليوم من أنّ الحروب الصليبية كانت سبباً في انتقال العلوم والمعارف بين الشرق والغرب «فالحروب الصليبية لم تكن أبداً سبباً في إدخال العلوم إلى أوربا كما يُردَّد على العموم، وإنَّما دخلت العلوم أوربا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك أن مكتبا للمترجمين في "طليطلة" بدأ منذ سنة 1130م، بنقل أهم كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة" ريمون"، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة، فقد تدفقت العلوم الإسلامية على أوربا من خلال الأندلس بعد أن فتح المسلمون الطريق عبر جبال "البُرت" إلى فرنسا وإيطاليا، حيث عبر العلم والفلسفة الإسلاميان من خلال رأس الجسر الثقافي الذي أقيم في شبه جزيرة ايبريا إلى أوروبا»[2].

لقد أعجب العرب ببلاد الأندلس وارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً، فقد كانت بمثابة الفردوس بالنسبة لهم «فها هو القائد موسى بن نصير يصفها في رسالة للخليفة الأموي فيقول: إنّها شامية في طيبها وهوائها، يمنيّة في اعتدالها واستوائها، هنديّة في عطرها وذكائها، أهوازيّة في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها عدنيّة في منافع سواحلها»[3].

كما يُعبِّر "ابن خفاجة" عن إعجابه بهذه البلاد الجميلة، ويَحسد أهلها ويَصف الأندلس بالجنَّة التي ليس بعدها نار «في أبيات مشهورة يقول فيها:

---

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص11 ،12

[2] توفيق سلطان اليوزبكي: الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا، ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد5، العدد20، 1431ه/2010م، ص130

[3] ينظر: عدنان محمد زين سومي: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا، ص8

يا أهل أندلس لله درّكـــــــــــــــــــــــــــم
ماء وظلّ وأنهار وأشجـــــــــــــــــــــار
ما جنّة الخلد إلاّ في دياركـــــــــــــــــــم
ولو تخيّرت هذا كنت أختـــــــــــــــار
لا تخشوا بعدها أن تدخلوا سقـــــــــــــــراً فليس تدخل بعد
الجنّة النـــــــــــــــار»[1].

ومن الأشياء التي امتازت بها الأندلس عن غيرها من البلاد الأوروبية «أنَّها كانت بدخول العرب والمغاربة مسكن كثير من الأوروبيين والآسيويين ويهود أمم مختلفة، وبعبارة أخرى تجمّع فيها العنصر الآري والعنصر السامي؛ وإسبانيا هي كذلك إلى اليوم، ويَظهر ذلك في اللغة والموسيقى والعادات والتقاليد، وقد تلاقى في الأندلس جملة أمم ...كل ذلك كان له الأثر البالغ في الإبداع في مجالات عدّة، وقد جارت مدن الأندلس مدن المشرق بكثرة أبنيتها وفخامتها، وبكثرة علمائها وأدبائها، وتنوع الإنتاج الإبداعي حتى فاق الأندلسيون به أهل المشرق على الرغم من أنّهم اعتمدوا على ثقافة الشرق وعلمائه وأدبائه الذين سافر قسم منهم إلى الأندلس، ونقلت كتب بعضهم الآخر إلى البلاد الجديدة فصاروا يتمثلونها ويؤلفون على نمطها بروح جديدة أيضا»[2].

لقد قامت الحضارة العربية الإسلامية بدورها الطليعي خير قيام في بناء النهضة الأوروبية الحديثة، وقد شكّلت الأندلس_كموقع استراتيجي_المركز الذي منه سطعت الحضارة العربية الإسلامية وبرزت إلى النور لتشكّل المشعل لغيرها من الأمم والحضارات للالتحاق بركب التحضّر والازدهار، «فقد ساعد موقع الأندلس وطبيعتها الجغرافية في تأسيس الحضارة الأندلسية، فالحياة وفيرة لوفرة الأنهار، وتطلّ سواحلها على المتوسط من الشرق، وعلى المحيط من الغرب، وفيها مجموعة من الجبال الخضراء المجملة للطبيعة والمانحة للناس الراحة والإبداع والطمأنينة وإلى جانب ذلك كلّه لا يفصلها عن المغرب وإفريقيا سوى مضيق جبل طارق وهذا ما يسهّل انتقال الكثير من المعارف والعلوم وأسباب العمران في أراضيها، ومع ذلك فقد كان لسفنها دور كبير في التّجارة الخارجيّة مع بيزنطة وبلاد المشرق العربي وبشكل عام فإنّ

[1] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص5
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص20، 21

مناخها المتوسطي لم يختلف عند العرب عن مناخ الشرق، وهذا ما ساعد على التأقلم السريع مع بيئتها»[1].

لقد دام الحكم العربي الإسلامي لبلاد الأندلس «ثمانية قرون حفلت بالبناء الحضاري كما هي في البناء السياسي، لكن السياسيين يتغيّرون والحضارة تبقى شاهدة على ذلك العقل العربي المتطوّر الذي لم يترك فرصة للبناء والتحضّر إلاّ وعبأها بما صنعه عقله وبما صنعته الأيدي في البناء والتقدّم»[2].

فقد شَكَّلت المدن الأندلسية خلال الحكم العربي الإسلامي عيوناً للحضارة والرُقيّ، نَهلت من منابعها القارة الأوروبية قرون عديدة، «فقد جارت مدن الأندلس مدن المشرق بكثرة أبنيتها وفخامتها، وبكثرة علمائها وأدبائها، وتَنوّع الإنتاج الإبداعي حتى فاق الأندلسيون به أهل المشرق على الرغم من أنّهم اعتمدوا على ثقافة الشرق وعلمائه وأدبائه الذين سافر قسم منهم إلى الأندلس ونقلت كتب بعضهم الآخر إلى البلاد الجديدة فصاروا يتمثّلونها ويألفون على نمطها بروح جديدة رؤية جديدة أيضاً»[3].

كانت هذه هي أهمّ المعابر التي انتقلت من خلالها الحضارة العربية الإسلاميّة إلى الغرب الأوروبي، وقد كان تأثيرها في بلاد الأندلس فعّالاً، حيث أثّرت في شتى الميادين ومختلف المجالات ونتعرّج في الفصل الموالي على أهمّ العلوم والمعارف التي أثّرت بها الحضارة العربية الإسلامية في الغرب خلال العصر الوسيط.

[1] المرجع السابق، ص40
[2] المرجع نفسه، ص17
[3] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص21

الفصل الثاني:

التأثيرات العامّة وانتقال المعارف المختلفة.

1_**المبحث الأول**: انتقال الفلسفة والطّب.

2_**المبحث الثاني**: انتقال الرياضيات وعلم الفلك.

يعدّ العلم والمعرفة حاجة ضرورية من حاجات الإنسان في كلّ زمان ومكان، فقد بدأ ظهور العلوم المتعدّدة مع تزايد المستلزمات المختلفة للشعوب والأمم، فبدأ الإنسان اكتشاف الوسائل التي تساعده على توفير حاجاته الأساسية اليومية كالمأكل والمشرب والملبس والمأوى.... وتطوّرت جميع هذه الوسائل مع مرور الزمن، كما ظهرت وسائل جديدة ومتطوّرة لتلبي حاجات أكبر وأهم في حياة الإنسان... ولأجلها بذل الإنسان جهداً مضنياً طوال تاريخه الطويل مع الحضارة.

ومع مرور الزمن استطاع الإنسان أي يسيطر على الطبيعة المحيطة به، وحاول بعد ذلك أن ينشئ لنفسه الظروف الملائمة التي تساعده على التزوّد بأكبر قدر من المعرفة الإنسانية، وقد كان أول ما فكّر فيه الإنسان هو الاستقرار فأنشأ المدينة، وكانت أول مسار للإنسان نحو التحضّر «ذلك لأنّه تتجمّع في المدينة_حقا أو باطلا_ ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ، وفي المدينة يتلاقى التجّار حيث يتبادلون السلع والأفكار، وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول، يُرهف الذّكاء وتستثار فيه قوّته على الخلق والإبداع وكذلك في المدينة يُستغنى عن فئة من الناس فلا يُطلب إليهم صناعة الأشياء المادية، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن، نعم إنّ المدنيّة تبدأ في كوخ لكنّها لا تزدهر إلاّ في المدن»[1].

وبعد مرور الزمن، واختلاف الظروف المحيطة بالإنسان، والعوامل المساعدة له في تكوين ذاته، «ارتقى العقل البشري إلى ما هو أبعد من توفير المتطلبات اليومية فسعى إلى قهر الطبيعة وتسخيرها لخدمة أهدافه وغاياته، وعلى سبيل المثال فقد شكّلت الحوادث اليومية كالأمراض والأوبئة والجفاف والحرارة والبرودة دافعا مهماً إلى التزوّد بالعلوم المختلفة، فالحاجة إلى التداوي والدواء أوجدت علم الطب والأدوية، والظواهر الطبيعية المختلفة كالزلازل والبراكين والفيضانات وظاهرتا الخسوف والكسوف استدعت الإنسان أن يستفهم حولها مدّة من الزمن، ومن خلالها ظهر علم الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والفلك، كما أن المعاملات اليومية بين الناس التي تقتضي الحساب استوجبت علما قائما بذاته هو الرياضيات... وغيرها كثير من العلوم التي

[1] ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود، تقد: محي الدين صابر، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت، وجامعة الدول العربية بتونس الجزء1، المجلّد1، دت، ص5

فرضت وجودها الحاجة الماسة إليها في البداية، فتطوّرت في النهاية لتصبح علوماً نظرية معقّدة وقائمة بذاتها في العصر الحديث»[1].

وخلال كل هذه المسيرة نحو التقدّم شكّلت الحضارات الإنسانية القديمة عاملا مهما فيها، ومن أهم الحضارات التي شكّلت المحور الأساس في النهوض بالعلوم المختلفة، وحملت مشعل الرقيّ بها دونما حاجز مادي أو معنوي، هي الحضارة العربية الإسلامية التي مدّت يد العون لحضارات سابقة عنها فانتشلتها وارتقت بالفكر الإنساني وسمَت بالعلم والعلماء؛ وأهمّ فترة في تاريخ هذه الحضارة العظيمة، هي الفترة التي حكم فيها العرب المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية أي ما سمّوه لاحقاً "الأندلس"، فكانت هذه البلاد خير مضيف لحضارة ملأت بنور علومها وآدابها أوروبا بأكملها إلّم نقل العالم أجمع.

وهذه الحقبة من تاريخ العرب المسلمين لم تكن بالوجيزة، فقد دام الحكم العربي الإسلامي لبلاد الأندلس ما يقارب الثمانية قرون من الزمن (92_197ه/710_1492م)، حملت فيها الحضارة العربية الإسلامية المشعل الذي أنار دروب الأوروبيين خلال القرون الوسطى المظلمة، وقد كانت للحضارة العربية اليد الطولى في نشر العلم والمعرفة وإخراج الجنس البشري الأوروبي من الظلمات إلى النور، «ففي الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية في أوجّها وكان العلم العربي في كافة المجالات من طبّ وصيدلة وعلوم بحتة، موسيقى وفلك وجغرافيا... وغيرها قد بلغ درجة فائقة من التقدّم، وكان العرب قد أضافوا الكثير، سواء في مضمون العلم أو منهجه، بل ووضعوا أسس العديد من العلوم، وحوّلوها من علوم تختلط بها الخرافة والسحر إلى علوم مضبوطة... في ذلك الوقت كانت أوروبا تعيش في غياهب العصور الوسطى وقد نخرت في عظامها الحروب وسيطرة رجال الدين، ولذا كان اختلاط العرب بالأوربيين اختلاط قتال في البدء ثم تحوّل إلى اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك»[2].

إنّ الحضارة العربية الإسلامية قد أعطت أكثر ممّا أخذت وتأثيرها «على الغرب كان شاملاً، ولم يترك مجالاً واحداً من مجالات العلم، فكان التأثير في مجال الرياضيات

[1] ينظر رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص11 ،12
[2] المرجع نفسه، ص291

والفلك والموسيقى والطب، والعلوم التطبيقية كالكيمياء والفيزياء والنبات وغيرها، إلى الفلسفة والعلوم الإنسانية بشكل عام»[1].

إنّ تراث أي أمة هو بذرة بقائها ودعامة وجودها الحضاري، ودراسته تعني تعرفاً على الذات واستشرافاً للمستقبل، وإنّ أية أمة لن تستطيع أن تسير قدماً إلى الأمام بخطى راسخة شجاعة إلا إذا أدركت جذور تراثها وربطت خيوط حاضرها ومستقبلها بما يماثلها ويشابهها في صفات ماضيها سواء القريب منه أو البعيد، للأمّة العربية الإسلامية تراث عميق، متجذّر في أصولها، ودورها الفعّال خلال العصور وخاصّة العصور الوسطي الأوروبية لا يمكن تجاوزه أو انكاره.

وهذا كلّه راجع إلى أنّ الحضارة العربية الإسلامية هي جزء حي من كتلة الحضارة العالمية التي أثرت فيها وتأثرت بها، فقد امتدت دولة الإسلام من حدود الصين إلى جنوب فرنسا، ورافق حبّ الاطّلاع والتعلّم حركة الفتوحات الإسلامية، فاستفاد العرب من فلسفة اليونان، ومن ثقافة الصين والهند، بالإضافة إلى ما لديهم من ملامح فكرية عربية أصيلة، فهضموا هذه الحضارات المختلفة وتولّوها بالرعاية والبحث والتصحيح والتهذيب، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها وتميزت بملامح جديدة، «فكلّ حضارة في التاريخ تؤلّف موكباً طويلا سارت فيه كلّ أمّة شوطا من أشواط تاريخها الحضاري، وإنّ فضل كلّ أمّة إنما هو في القسط الذي تقوم به في بناء هذه الحضارة الإنسانية»[2].

إنّ ما يعتقده أبناء الأوروبيين اليوم بشأن الحضارة العربية الإسلامية من أنها مجرّد واسطة أو جسر لا أهميّة له حال دونهم ودون تراثهم اليوناني والإغريقي الأصيل، وكان العرب المسلمون في ذلك مجرّد نقلة من الدرجة الأولى لم يزيدوا على ما نقلوه أو ربما أنقصوا من ذلك شيئا، في حين ينفي بعضهم الآخر وجود هذه الحضارة العظيمة تماماً، وفي حقيقة الأمر أنّ ما قدّمته الحضارة العربية الإسلامية خلال القرون الثمانية في شبه الجزيرة الإيبيرية أقل ما يقال عنه أنه جهد عظيم وأمر جلَلْ، أخذ من السادّة والعلماء والمفكّرين العرب معظم حياتهم أو كلّها، فليس من الهيّن أن تنقذ حضارة كانت على شفا الهاوية، سائرة في خُطاً سريعة نحو الاندثار، ورغم الجهود

[1] المرجع السابق، ص300

[2] عمر فرّوخ: الحضارة الإسلامية وقسط العرب فيها، دار لبنان للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان، 1400ه/1970م، ص9

المظنيّة العظيمة يقرّ العربي المسلم في تواضع منه ووقار أنّه «ليس كلّ ما انتقل على أيدي الحضارة الإسلامية عربيًّا محضاً في الأصول والفروع، ولكن حسبها أنّه لم ينقطع على أيديها، فاتّصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث، فحفظت تراث الإنسانية كلّها، وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها، وكلّ حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات، ومن طلب إليها ألاَّ تورث الناس إلاَّ شيئا جديداً من ابتداعها فقد طلب إليها أن تلغي كلّ ما تقدّمها، أو هو قد طلب إليها ما يناقض الحضارة في فضيلتها الكبرى، وهي فضيلة السماحة والحرص على تراث بني الإنسان»[1].

والحضارة العربية الإسلامية لا ينقصها أو يقلّل من أهميتها أمر تأثرها واستفادتها من الحضارات والثقافات التي سبقتها، بل على العكس فهو عامل قوة لها، وهو أمر طبيعي أن تقتبس كل أمة من معارف وعلوم الأمم الأخرى التي سبقتها، ولكن يكفي الحضارة العربية الإسلامية فخراً بأنها لم تكن مقلّدة أو تابعة للحضارات التي سبقتها، بل إنّ رجال هذه الحضارة بحثوا واجتهدوا وابتكروا، متّكئين على ركائز دينهم الذي يدعوا إلى طلب العلم، وعلى جذورهم الفكرية الأصيلة، فأضافوا وأوجدوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضاري إلى الأمام، فكل أمّة من الأمم لها تراثها الأصيل الذي تتكئ عليه للتقدّم نحو المستقبل، وتبقى «الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات، فكلّ حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميّزها بين الحضارات العالمية، ولم توجد قط حضارة تفرّدت بالإبداع أو تفرّدت بالنقل أو خلت من السمة التي تميّزها بين سمات الحضارة»[2].

وإنّ من أهم العوامل التي ساعدت الحضارة العربية الإسلامية على العطاء الغزير أنّها برعت كلّ البراعة في الإفادة مما وصل إلى أيديها من علوم وآداب الحضارات السابقة عنها، فتميّزت بذلك وكانت أمّة واصلت الإنتاج الثقافي والحضاري، «فالأمم العظمى لا تستمرّ في سمع التاريخ وبَصره، بل تبرزُ حينما تقوم بقسط معيّن في إغناء الثقافة الانسانية أو نشر الحضارة الإنسانية فالأمة العربية إذا ما قرأنا كتب التاريخ القديم لا نكاد نجد لها في تلك الكتب ذكراً ... ولكن إذا ما انحدرنا في التاريخ إلى الأزمنة الوسيطية بدءاً بالقرن السابع للميلاد، نجد أنّ كتب التاريخ قد امتلأت بأحداث

[1] عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دب، 1997، ص32
[2] المرجع نفسه، ص28

العرب لأنّ الإسلام_ في تلك الحقبة_ قد حمّل العرب رسالة أَخرَجت العالَم من الظلمات إلى النور ومن الاستعباد إلى الحريّة، ومن الجهل إلى العلم ومن الجاهليّة إلى الحضارة»[1].

لقد تميّزت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس عن غيرها من حضارات العالم بكونها بدأت من الصفر لتصل في وقت وجيز إلى قمّة التحضّر والانفتاح فقد «ازدهرت حضارة العرب في اسبانية وبلغت أوجّها برغم أنّهم لم يجدوا فيها شيئاً من الفكر أو الثقافة كما وجدوا في البلدان الأخرى التي مثّلت شعوبها دوراً كبيراً في مزج الحضارات الهلينية والبيزنطيّة والفارسيّة والهنديّة بالحضارة العربية؛ وكان من المتوقّع والمعقول أن تزدهر الحضارة العربية في مثل تلك البلدان أمّا في المغرب حيث البربر، وفي إسبانيا حيث القوط الغربيون المتأخرون، فلم يكن ثمّة ما يبشّر بأي خير، ولم تكن هذه بالشعوب التي يَتعلّم منها القادمون من بلاد العرب أو من سورية شيئا يفيدهم، وبرغم هذا فقد استطاع العرب أن يقدّموا للبشريّة أكبر دليل على أنّهم أصحاب حضارة وأهل فكر، وليسوا مجرّد نقلة لحضارات الشعوب كحمار يحمل أسفاراً، كما تنادي بذلك بعض النظريات التاريخية الخاطئة المغرضة، ففي الأندلس لم يجد العرب شيئا بالمرّة يتعلّمونه ويهضمونه ليترجموه أو يقلّدوه ثم يقدّموه؛ فالحضارة الأندلسية التي كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها، لم تكن قائمة على أساس فارسي أو إغريقي، لقد كانت عربيّة صرفة أكثر من الحضارة العربية في أيّ مكان آخر»[2].

ومع كلّ هذه الظروف المزرية التي كانت عليها اسبانيا قبل الفتح الإسلامي، إلاَّ أن الفاتحون العرب حاولوا جاهدين على إعمار هذه البلاد، والنهوض بكلّ ما من سبيله أن يدبّ الحياة فيها في جميع المجالات، وأوّل دليل على حسن نيّة الفاتحون العرب أنّهم ترفعّوا عن كثير من العادات السيّئة التي عادة ما تكون في المستعمر من تخريب وحرق وظلم واضطهاد، بل على العكس من ذلك فإنّهم قد كانوا على سعة من الأدب والأخلاق والحضارة فصاروا بذلك قدوة يُحتذى بها لأبناء أوروبا، فأصبحوا يتمثلون الجنس العربي في كل أشكال حياتهم، فالعربي قد بنى حضارة شهدت لها المشارق والمغارب، بشجاعته وثقته غير المحدودة بنفسه وبمقومات شخصّه الكريم النابعة من الدين

[1] عمر فرّوخ: الحضارة الإسلامية وقسط العرب فيها، ص13، 14
[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص474

الإسلامي الحنيف وسنّة المصطفى، «فحين يقيّم المنصفون هذه الحضارة يجدون أنّ العرب الفاتحين لم يأتوا ليهدموا حضارة كانت قائمة، ولم يأتوا ليجلبوا الجهل والتّخلف إلى شعوب كانت متعلّمة متقدّمة، فبناء الحضارة يحتاج أولاً لإنسان مستعدّ في عقله ونفسه وجسده وعقيدته، لإنسان غير متحجّر قابل للتّطوير والتطوّر، وقد كان العرب الفاتحون بما حملوه من روح للإنطلاق، وعقيدة بنّاءة وعقل منفتح غير متحجّر، مؤهلين لمسابقة الزمن في صنع حضارة عظيمة ما تزال آثارها شاهدة للعيان في مدن اسبانيا الحالية»[1].

وليس هذا وحسب فقد اتّسَم تاريخ العرب المسلمين في الأندلس وفي غيرها من البلاد المفتوحة بالتسامح ونبل الأخلاق، وقد أبدى العديد من الكتّاب المعاصرين إعجابهم إزاء هذا التسامح الذي لا نظير له، فالفاتحون العرب قد سمحوا لشعوب هذه الحواضر أن يمارسوا عاداتهم وتقاليدهم وشعائرهم الدينية بكلّ حرية وبدون قيود، «فالعرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصّب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أيّ عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوها بأدنى أذى»[2].

وفي كتب التاريخ العديد من الاعترافات من قبل الغربيين أنفسهم بعدل وسماحة الدين الإسلامي، فقد ترك المسلمون في ذاكرة الشعوب الأوروبية أثراً عميقاً، «لأنّ السادة والحكّام المسلمين الجدد لم يزجّوا بأنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية، "فبطريرك" بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينيّة عن العرب: "انّهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتّة، وهم لا يستخدمون معنا أيّ عنف"»[3].

ولهذا السبب استأنس الغربيون بالحضارة العربية الإسلامية وبدأوا يتّصلون بأهلها وينهلون من مناهلها لأنّهم لم يجدوا مانعاً يحول بينهم وبين هذا الاتّصال، «فكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة هكذا انعطف الناس_حتى من بقي منهم على دينه_ إلى السادة الفاتحين، يقلّدونهم في طرق معيشتهم وسلوكهم ويتمثّلون بأخلاقهم،

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص3
[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص364
[3] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص364

ويأخذون عنهم لغتهم ويسمّون أولادهم تسميات عربية، وبمرور الوقت يصير ملبسهم ومعيشتهم وسلوكهم عربياً، حتى أنّ الطبيب من بعلبك والتاجر من الموصل، وطالب الفلسفة من غرناطة ليلتقون في سوق القاهرة أبناء شعب واحد لا يستطيع أحد أن يفرّق بينهم»[1].

لقد استطاع العنصر العربي في كل أقطار العالم التي وصلها دين الإسلام أن يترك أثراً واضحا يدل على الحضارة العربية الإسلامية، من خلال كلّ علاقاته الاجتماعية أو الاقتصادية وحتى الدينية، وكما ساد العربيّ بأخلاقه الفاضلة وسلوكاته الحميدة، ساد أيضاً بعلمه ومعرفته، فقد كانت الأندلس قبل دخول العرب المسلمين إليها عبارة عن اقطاعيات يسكنها مجموعة من الفلاحين العبيد البسطاء لا يملكون أدنى حقوقهم كما كان يخيّم السحر والشعوذة على العقول الإفرنجيّة، وكان الاستبداد والاستغلال هو خلق الحكّام فيها تحقيقاً لسيادتهم وسيطرتهم، على حساب الأقلّية المتبقية من شعوب هذه الجزيرة.

ولكنّ هذه الحال لم تدم فبعد الفتح العربي الإسلامي بقليل، اختلفت الأوضاع في الأندلس وأصبحت الحياة رغيدة وساد الإزدهار في كلّ شبر منها، و«فإذا كانت بغداد ودمشق وحلب وغيرها من المدن قد شهدت جلّ المعالم الحضاريّة زمن الدولة العباسية، وخاصّة زمن الرّشيد وابنه المأمون، فإنّ مدن الأندلس كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وغيرها شهدت أيضا نفس التطوّر الحضاري، وأصبحت محط أنظار كثير من العلماء والأدباء والتّجار، وأصبحت في زمن "عبد الرحمان الناصر" تنافس المدن المشرقيّة بكثرة مبانيها ومكتباتها وقصورها وأسواقها»[2].

ومن أهمّ المظاهر التي تدلّ على التحضّر والمدنيّة التي بلغتها هذه المدن الأندلسية خلال الحكم العربي الإسلامي لها أنّه قد «بلغ عدد سكان قرطبة عاصمة الخلافة الإسبانيّة في فترة ازدهارها تحت قيادة عبد الرحمان الثالث(الناصر) نصف مليون مواطن وكان بها 300 حمام عام و700 مسجد و70 مكتبة، أمّا البلاط القرطبي في مدينة الزهراء فقد كان به قصر قبابة المرمريّة الموشّاة بالحرير تدور حتى تخترقها أشعة الشمس تدريجياً وتنعكس على قطع الخزف الجميلة فوق الجدران، وكل هذه

[1] المرجع نفسه، ص366
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص21

الألوان المتحركة كانت تنعكس بدورها على النوافير، التي لم تكن مصباتها من المياه، وإنّما من الزئبق»[1]، ولنا أن نتخيّل جمال هذا المنظر الذي يسحر العقول، في زمن ليس بالحاضر ولا فيما هو آت من المستقبل، بل في زمن عاشت فيه أوروبا في حظّ أدنى من الازدهار والتطوّر، وحظّ أوفر من ألوان الجهل والتخلّف.

ومن فوارق هذه الحقبة التي اتّسمت بالظلام بالنسبة لأوروبا وللغرب عامّة، والتطوّر والانفتاح والتألّق بالنسبة للعرب المسلمين، أنّ المدن الإسبانية أصبحت تختلف عن الباقي البلاد الأوروبية، لتطوّرها هذه وتخلّف تلك، فمدينة قرطبة مثلاً ضمّت إليها أجمل معاني الجمال فقد كانت «مدينة مبلّطة ومضاءة بأنوار تنطلق من النواصي أو من البوابات الرئيسية للمنازل، بينما بعد ذلك بحوالي سبعمائة سنة لم يكن في لندن ثمّة مصبح واحد ينير الشارع، وأيضاً بعد ذلك بقرون كان المواطن يغوص في الطين حتى ركبتيه في شوارع باريس في أيام المطر، وعندما كانت أوكسفورد تنظر إلى الحمّامات على أنّها شيء وثني، كانت أجيال العلماء القرطبيين تنعم بالحمّامات الشعبية»[2].

وهذا ليل واضح على ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس وما ساهمت به لانتشالها من التخلّف الذي كانت عليه أوروبا، وبهذا انفردت الأندلس بجمالها ورونقها عن أوروبا بأسرها، وأصبحت محل دهشة الأوربيين وإعجابهم، فسعوا جاهدين إلى الاتصّال بها والاغتراف من نبع حضارة العرب المسلمين فيها.

إنّ الحضارة عند العرب المسلمين لم تأت من العدم، فقد تشكّلت وتبلورت معالمها قبيل فتحهم لشبه الجزيرة الإيبيرية، «فالعرب قبل دخولهم الأندلس كانوا قد هضموا الثقافات والحضارات الكبرى ودمجوها في حضارة العرب؛ التي ما إن وصلت بداية العصر العباسي حتى أصبحت محطّ أنظار الإفرنج وبيزنطة، وحين أتاحت الظروف لهم أن يشقّوا الطريق إلى الأندلس حملوا معهم هذا الرّكام بل هذا التراكم الكبير من المعارف والعلوم، حملوها ليصبّوها في قالب جديد وعصر جديد، وما إن اندمجوا بتلك الأرض الجديدة حتّى راحوا يشيّدونها ويصنعون فيها كل ما يبهر العين ويسرّ النفوس، وكل ما يشهد على عبقريّتهم»[3].

---

[1] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص44

[2] المرجع السابق، ص45

[3] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص4، 5

لقد مهّدت الحضارة العربية الإسلامية لظهور العديد من العلوم والمعارف الجديدة، التي لم تكن موجودة قبلهم، وسعوا جاهدين إل تطويرها وإفادة البشريّة من اكتشافاتهم التي تعدّ المرجع الأساس والوحيد في النهضة الأوروبية الحديثة، «وقد تنبّه الأوربيون في معاركهم مع العرب إلى قوة العرب التي كانت تكمن في تقدّمهم الحضاري والعلمي، ولذا عملوا جاهدين على الاستفادة من العلم والحضارة عند العرب، ومن هنا كان التّفاعل الثقافي والحضاري، وانتقلت الحضارة والعلوم من الشرق إلى الغرب لتضع أسس العالم الجديد عالم عصر النهضة وما بعدها»[1].

إنّ جهود العلماء والمفكرين العرب والمسلمين قد شكّلت المشعل الذي عليه عوّل الأوروبيون في نهضتهم الحديثة وسنتطرّق فيما يلي إلى مختلف التأثيرات العامّة المتعلّقة بانتقال المعارف المختلفة من الشرق الإسلامي إلى الغرب الأوروبي.

وسنقسّم فصلنا هذا إلى مبحثين أساسيين نتعرّض في المبحث الأوّل منه إلى انتقال الفلسفة والطب من الشرق إلى الغرب، ثمّ نعرض في المبحث الثاني إلى انتقال علميّ الرياضيات وعلم الفلك إلى هذه البيئة الجديدة على أيدي علماء العرب المسلمين.

[1] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص291

المبحث الأول: انتقال الفلسفة والطب.

أ/انتقال الفلسفة:

تعتبر الفلسفة في زماننا الحاضر علما قائما بذاته، وقد عرفت الأمم السابقة من يونانية وإغريقية هذا العلم منذ أزمنة غابرة، وقد برز في هذه الأمم فلاسفة عظماء أمثال: سقراط وأفلاطون وأرسطو، والفلسفة بإجماع المفكّرين والفلاسفة هي علم للتفكير والنظر في المسائل قائم على العقل والمنطق، وهي تعتبر أم العلوم عند بعضهم، أمّا عن المصطلح «فمن المعروف أنّ المعنى الاشتقاقي_الدلالة اللغوية_لكلمة "فلسفة" (Philosophie)، يعود إلى لفظين يونانيين هما "فيلو"(Philo) وتعني محبّة، و"صوفيا"(Sophia) وتعني الحكمة، فيكون المعنى أنّ الفلسفة هي محبّة الحكمة، ومن بين ما تشير إليه الحكمة في العربية النظر الصّحيح والعمل المتقن وصواب الأمر وسداده ووضع الشيء في موضعه، كما يصف القرآن الكريم الحكمة بأنّها "خير" فيقول تعالي:" يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"»[1] (سورة البقرة، الآية:269).

وللفلسفة تعريفات عدّة عند الفلاسفة المسلمين، فقد «أخذ المسلمون هذه الكلمة من اليونانيّة فعرّبوها، وأعطوها طابعاً شرقياً، واستعملوها في مطلق العلوم العقليّة، وليست الفلسفة في المصطلح الشائع بين المسلمين اسماً لفنّ أو علم مخصوص، فإنّهم

[1] جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج، قسم العلوم الإجتماعية، محاضرات السنة الأولى علوم إجتماعية: مدخل إلى الفلسفة العامّة، 2016،2017 ص3

يدرجون جميع العلوم العقليّة_في قبال النّقلية من قبيل: اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والتّفسير والحديث والفقه والأصول_في عنوان الفلسفة وقد كان لكلمة "فيلسوف" مفهوم عام آنذاك، فكانت تُطلق على الشخص الجامع لجميع العلوم العقلية أعمّ من الإلهيات والرياضيات والطبيعيات والسياسة والأخلاق وتدبير المنزل، حتى اشتُهرت هذه العبارة بينهم:"الفيلسوف عالم عقلي مضاه للعالم العيني"»[1].

لقد تميّزت الفلسفة الإسلاميّة عن الفلسفة اليونانيّة لكونها اصطبغت بالروح العربيّة الإسلاميّة فقد «عُرفت الفلسفة في بلاد الإسلام بعد حركة الترجمة التي قامت بنقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية، ممّا جعلها تنطبع بطابع خاص رغم الادعاءات الاستشراقية التي تنفي عليها الصفة الأصيلة للفلسفة... ومن بعض تعريفات الفلسفة لدى فلاسفة المسلمين أمثال:

_الكندي(805_873ه): الذي عرّف الفلسفة بالعديد من التعريفات نذكر منها:

أ_الفلسفة هي "صناعة الصناعات وحكمة الحكم".

ب_الفلسفة هي"معرفة الإنسان نفسه تؤدي إلى معرفة العالم الأكبر أي المعرفة بالطبيعة والكون ومن ثمّ ترتقي إلى معرفة الخالق".

ج_ "إنّها التشبّه بأفعال الله تعالى بقدر طاقة الإنسان".

_الفارابي(874_950ه): نظر إلى الفلسفة باعتبارها الصناعة التي تؤدي إلى إصابة الحكمة لمن يتمتعون بجودة التمييز الناتجة عن جودة الذهن، واقتناء الحكمة_أي معرفة الحق على طريقة الفلاسفة_يعني اقتناء الأشياء الجميلة نظراً وعملاً، فهناك في نظره الجمال النظري الذي هو المعرفة النظرية للحقيقة على أساس من التأمّل المتّصف بالحكمة، وهناك الجمال العملي الذي هو السلوك الفاضل الذي يتّخذ من الموقف الوسط حدّاً يلتزم به فلا يتّجه إلى أحد الطرفين المرذولين»[2].

[1] مرتضى المطهَّري: الفلسفة، تر: حسن علي الهاشمي، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1432ه/2011م، ص15

[2] جامعة محمد البشير الإبراهيمي: مدخل إلى الفلسفة العامّة، ص5

لقد اختلفت تعريفات الفلسفة من مجال إلى غيره من المجالات ومن فيلسوف إلى آخر، فهي تعني عند هذا الحكمة وعند ذاك المنطق، وعند آخر شكل من أشكال الفكر القائم على العقل وحده دون مراعاة للحواس، وكما يراها البعض الآخر أهم العلوم كلّها من طبّ وفيزياء وأدب وأخلاق في حين يصفها فلاسفة العصر الحديث أمثال «"رينيه ديكارت"(1596_1650م): في مقدّمة كتابه "مبادئ الفلسفة"، يقول: "إنّ الفلسفة كلّها بمثابة شجرة جذورها الميتافيزيقا وجذرها الفيزياء، وغصونها المتفرّعة عن هذا الجذع هي كلّ العلوم الأخرى وهي ترجع إلى ثلاثة رئيسية: هي الطب، والميكانيكا، والأخلاق، وأعني أسمى أخلاق وأتمّها وهذه هي أعلى درجات الحكمة، وتفترض معرفة كاملة بسائر العلوم"»[1].

وإن كانت كلمة "فلسفة" ضمن سياق الحضارة الإسلامية بقيت ملتصقة بمفاهيم الفلسفة اليونانية الغربيّة، فإنَّنا عندما نحاول أن نتحدّث عن فلسفة إسلاميّة بالمفهوم العام كتصوّر كوني وبحث في طبيعة الحياة لابدّ أن يَدخل تحت حديثنا عن الفلسفة مسمّيات أخرى قريبة من موضوعاتها، كعلم الكلام وأصول الفقه وبعض علوم اللغة.

لقد كان العربي شغوفا طوال حياته بمعرفة العلوم والآداب المتعلّقة بالشعوب والأمم الأخرى غير العربية، ومن هذه المعارف "الفلسفة" وخاصة الفلسفة اليونانية والإغريقية، هذا لأنّ الدين الإسلامي لا يمنع شيئاً كهذا، بل يدعو إلى المعرفة الإنسانية دونما تحفّظ، إلاّ ما خالف الشريعة الإسلامية منها، ومن خلال هذا المعطى سار العربي في طريق كلّها بحث عن مدارك يجهلها، معروفة لدى غيره من البشر.

لقد عرف العرب الفلسفة اليونانيّة والإغريقية في أوقات مبكّرة من تاريخ حضارتهم، وأولوها أهميّة عظمى، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا المسيحية تجهل تراثها الفلسفي العريق كان العرب والمسلمون يتدارسون كتب اليونان والإغريق والرومان فحين «فتح العرب العراق والشام ومصر في القرن السابع، كانت العلوم والفلسفة اليونانية تدرس في مراكز عديدة، ففي "الإسكندرية" بمصر كان ثمّة مدرسة شهيرة، غير أنّها انتقلت بعد ذلك إلى الشام أولاً، ثم إلى بغداد في حوالي عام 900، وهناك اشترك أعضاء المدرسة_رغم أنّهم من المسيحيين_ اشتراكاً كاملاً في المناقشات

[1] المرجع السابق، ص6

الفلسفية الدائرة، وكانت "بحرّان" شماليّ العراق مدرسة لفرقة الصابئة شبه الفلسفيّة، غير أنّ أعضاءها هم أيضاً نزحوا إلى بغداد»[1].

لقد كانت المعرفة غاية الإنسان العربي في كلّ زمان ومكان، ولم يمنعه مانع من الإحاطة بعلوم اليونان والرومان وفلسفتهم، فبرز خلال القرون الثمانية فلاسفة مسلمون بارعون أمثال الكندي والفرابي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد.

وقد سطع نجم هؤلاء الفلاسفة المسلمون قروناً عديدة في سماء إسبانيا الإسلامية، وقد أدرك الغرب الأوروبي متأخرا أنه يجب أن يولّي وجهه صوب الحضارة العربية الإسلامية ليستفيد منها لبناء كيانه المنهار ومع ذلك سرعان ما أفاق الغرب من سباته، الذي حطّمته الحضارة العربية الإسلامية بنورها الوضّاء، «فما حلّ القرن الثالث عشر حتّى عرفت أوروبا الغربية حركة فكريّة قويّة قادرة على تمثّل كل ما تعلّمه العرب في ميداني العلوم والفلسفة، وعلى الانتقال إلى طور الاكتشافات الجديدة، وقد تُرجمت في ذلك القرن المؤلّفات العربية الممتازة التي لم تكن قد تُرجمت بعد، متى كان الأوروبيون مهتمّين بموضوعاتها»[2].

لقد أدرك العربي الأهميّة الكبرى التي تمثّلها العلوم القديمة، فسعى كلّ جهده لتوفيرها ودراستها والتعليق عليها وتنقيحها، دون أن يكون في صدره خوف يحول دونه، فبعد فترة وجيزة من استقرار الدولة الإسلامية في جميع الأقطار المفتوحة، التفت العلماء والمفكرون العرب والمسلمون للتحصيل العلمي والأدبي، وقد كان هذا أشدّ ما برع فيه العرب خلال العصور الوسطى، خاصة وأنّ الخلفاء العرب كانوا أنفسهم مثقفين وعارفين بما تقتضيه الحضارة من علم وفير ومعرفة أوفر، فشجّعوا طلاّب المعرفة على تحصيل ما توفّر من علوم وفنون، وخلال تلك القرون المجيدة «اجتمعت كتب المسلمين والمسيحيين واليهود على رفوف مكتبات العرب متحابّة تخدم الجميع على اختلاف معارفهم وعقائدهم في بناء النهضة العلمية...وبروح التّسامح العربي نفسه

[1] مونتجومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، دار الشروق، ط1، بيروت و القاهرة، 1403ه/1983م، ص47

[2] المرجع نفسه، ص85

لم يخجل العرب أن يدخلوا مدارس غير المسلمين وأن ينهلوا من منابع المعارف الهنديّة أو الإغريقية الشيء الكثير، وهم في عملهم هذا لا يخالفون تعاليم الرسول أبداً»[1].

إنّ ازدهار المعرفة في الأندلس كان أمراً طبيعياً لابدّ منه، لأنّها كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية العربية الإسلامية حينذاك «ولا شكّ أنّ الحركة العلميّة في الأندلس اعتمدت بادئ ذي بدء على علوم الإغريق ومجهودات علماء بغداد والمشرق الإسلامي، ولكن ذلك لم يدم طويلاً فلم تلبث الأندلس أن استقلّت فكريّا، ولمعت في سمائها أسماء عريضة لعلماء فطاحل أمثال الفيلسوف الكبير "ابن رشد" و "ابن زهر" و "ابن طفيل" الذي تُرجمت كتبه إلى عدد كبير من اللّغات الأوروبية، و"ابن باجة" و"ابن البيطار" و"ابن فرناس" و"ابن الخطيب" والفيلسوف العالمي "ابن خلدون" مؤسس علم الاجتماع "Soziologie" والعالم الصوفي "ابن عربي" و"ابن سبعين" وغيرهم من الأعلام»[2].

لقد كانت الفلسفة في بادئ الأمر علماً غريباً عند العرب المسلمين، لكنَّها أثَّرت في العقل العربي الإسلامي تأثيراً مباشراً، فكان الفرق بين الفكر الإسلامي قبل ظهور الفلسفة عند العرب وبعدها جليّاً، فقد «اندفع مفكرو الإسلامي إلى الدين وآلياته يعرضونها على محكّ العقل بعد أن كانت مقبولة ومسلماً بها دون جدال أو نقاش، ومنه ظهرت فلسفة العقائد الدينيّة، واعتمدت المناهج العلمية في تدعيم هذه العقائد فنشأ علم الكلام الذي يحدّده ابن خلدون بقوله:" هو علم الحجاج عن العقائد الدينيّة بالأدلّة العقلية، والردّ على المبتدعة والمنحرفين"»[3].

لقد سخَّر العلماء العرب العلوم الجديدة بالنسبة لهم لفائدتهم العلميّة والفكرية، بكلّ ما تحتويه هذه العلوم من أفكار وآراء ومذاهب وفلسفات، فتناولوها بالدراسة والتّمحيص، ومن هذه العلوم، الفلسفة والمنطق اليوناني، رغم أنّ البعض رفض الفلسفة والتّفلسف لأنّها أدخلت العقل العربي والإسلامي في دوامة فقد «قال الإمام "أبو حامد الغزالي"(450_505ه):"الفلاسفة خارجون عن جادة الصواب، في معرض هجومه

[1] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص368
[2] المرجع نفسه، ص500
[3] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص108،109

على الفلسفة، في كتاب التهافت[1]*... وقد شاركه الرأي فقهاء مثل "ابن تيمية" (661_728ه) الذي رأى أنّ الفلسفة والجدل والعلوم مضيعة للوقت ومفسدة للرأي، وكذلك "ابن خلدون" الذي اعتبر الفلسفة عملا مفسداً للعقل والإيمان»[2].

إنّنا اليوم ورغم ما وصل إليه العالم من تقدّم وتحضّر لا زلنا نسمع مثل هذه الأفكار المنغلقة _بشأن الفلسفة خصوصاً_ التي تحدّ من التدبّر والتفكير وإعمال العقل، إلاّ أن هذه الآراء السلبية على العموم «لم تثن علماء الإسلام ومفكّريه عن العمل من أجل تقدّم الفكر، والمساهمة في بنائه، فقد تعلّموا ثم أضافوا إضافات باهرة، فكان أن فتحت الترجمة أمام العقل العربي آفاق الحياة، وبفضلها نبغ علماء وفلاسفة كبار أثروا الفكر الإنساني وكانوا بمثابة معلمي البشرية أمثال:" الفارابي وابن سينا، وابن رشد، وابن الهيثم، وجابر بن حيّان، والخوارزمي، والبيروني، وحتى ابن خلدون الذي كان منتقداً لهذه الحركة كان نتاجا لها"»[3].

وقد انتقل هذا الفكر المغلوط عن الفلسفة من المشرق إلى المغرب الإسلامي، فقد «عُرف عن الأندلسيين عداؤهم للفلسفة، حيث اعتبروها مخالفة للدين، وكل من يشتغل بها يعتبر زنديقاً خارجا عن الإسلام، ومع مضيّ الزمن أخذَت الفلسفة تشقّ طريقها في الأندلس لعدم تشدّد رجال الفقه في موقفهم منها، وقد ارتبطت الفلسفة بالطب والتنجيم...والانشغال بالفلسفة كان ينقسم إلى نوعين: نوع أَمْيل إلى التصوّف منه إلى الفلسفة الصرفة، وهؤلاء اتبعوا من الفلاسفة أفلاطون، وربما كان من بينهم "ابن مسرة" والنوع الثاني من اشتغلوا بالفلسفة الصرفة على النّحو الذي سار عليه أرسطو»[4].

لقد ساهم الفلاسفة العرب بكل ما جادت بهم قرائحهم الفذّة في هذا المجال بإحياء الفكر الأندلسي ومن ثمة الأوروبي، فقد «كانت أوروبا في القرون الوسطى تغطّ في نوم عميق وكان الجهل يخيّم في أرجائها ولم تعرف عن الفلسفة، والطب، والرياضيات، والكيمياء، والفلك...إلاّ النذر القليل، ولمّا دوّى في مدارس إشبيلية، وقرطبة وغرناطة

---

*[1] يَقصد كتابه: تهافت الفلاسفة.

[2] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص109

[3] المرجع نفسه، ص 109، 110

[4] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص88

... وغيرها صوت علمائنا وفلاسفتنا صحَت أوروبا من غفوتها، وأقبلوا نحو الصوت ليسمعوا من الأساتذة المسلمين حقائق العلم والمعرفة ومبادئ المدنية والحضارة»[1].

وقد شكّل الفلاسفة العرب منعطفا حاسما في تاريخ أوروبا، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تضطهد رواد الفكر والعلم والإصلاح فيها، كانت الانطلاقة الحضارية العلمية، والفلسفة الفكرية عربية إسلامية متمثّلة في علماء الإسلام الأفذاذ، ومفكّريها النوابغ، وقد كانت هذه الانطلاقة سبباً في نهضة أوروبا الحديثة، وفي هذا الشأن «يقول الدكتور الحجي في كتابه "الحضارة الإسلامية في الأندلس" ص42،41: لدينا في الفلسفة أسماء لامعة، وإنتاج غزير، أمثال :

- **الفيلسوف "محمد بن باجة** " المتوفى سنة 533ه/1138م.
- **والفيلسوف "ابن رشد "** المتوفى سنة 595ه/1198م وهو أعظم فيلسوف أندلسي ترك أثراً واضحاً في الغرب.
- **والفيلسوف "ابن طفيل"**، صاحب قصة "حي بن يقظان " التي ترجمت إلى اللاتينية سنة 1671م وإلى الهولندية سنة 1671 م، ونقلت إلى أكثر اللّغات الأوروبية، ولم يكن القدّيس الفرنسي "توما الإكويني" المتوفى سنة 1674 م، الذي يعتبر من أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى إلاّ عالة في آرائه على فلسفة " ابن رشد "، ولقد ترجمت كتب " ابن رشد " إلى اللاتينية، وبقيت فلسفته مسيطرة على الفكر الفلسفي الأوروبي منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، حتى إنّ مجمع باريس اللاهوتي أصدر قرار الحرمان في سنة 1269م لكل من يردّد كلام "ابن رشد" في النفس والإنسان... وغيرها من المسائل الفلسفية.
- **والفيلسوف "ابن سينا"** الذي ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب، في الفلسفة والطب... وقد أداه بحثه في الفلسفة إلى اعتبار العقل هادي النفوس الإنسانية إلى الخير ومن أشهر كتبه كتاب "الشفاء" ويعتبر موسوعة فلسفية كبرى حَوَت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات وإلهيات...وقد ترجم إلى اللاتينية ومنها إلى بعض اللغات الأوروبية»[2].

ومن مجموع هؤلاء الفلاسفة الأفذاذ نأخذ مثالين اثنين وهما: "ابن باجة" و"ابن رشد" للاستدلال بهما عمّا ساهمت به الفلسفة الإسلامية في الغرب الأوروبي، لما

[1] عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، ص24
[2] المرجع السابق، ص 25، 26

لهاذين الفيلسوفان من أثر كبير في الفكر الغربي بسبب نبوغهما وفلسفتهما التي رسخت في العقل الأوروبي قرونا من الزمن، فساعدته على الخروج من غياهب الجهل والتخلّف والانغلاق.

_أ/ ابن باجة:

يعدّ "ابن باجة" من أهمّ الفلاسفة المسلمين الذائعي الصيت في أوروبا بأسرها وهو «أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف ب"ابن باجة"، كان عالما بعلوم الأوائل ويعدّ من الأفاضل في صناعة الطب، وله تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة (الفلك)، تدلّ هذه التعاليق على براعته في هذا الفن، وقد ذكره الكثير من المؤرخين بالتقدير والإعجاب والاعتراف بفضله في جميع العلوم التي كان بارعاً فيها، وفي الجانب الفلسفي نجد أنّ "ابن باجة" بنى فلسفته العقلية على العلم الرياضي والعلم الطبيعي، وقد رأى بعض الدارسين لفلسفته بأنّه خلع على مجموع الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل، ثمّ خلع عليها لباس العلم الصحيح وسيّرها في طريق جديدة، كذلك يذكر بعض المؤرّخين أنّ "ابن باجة" يعتبر أول فيلسوف في العصور الوسطى فصل بين الدين والفلسفة...ومن آرائه الفلسفية أنّ الإنسان يستطيع بلوغ السعادة القصوى عن طريق العلم والتّفكير لا بإماتة الحواس وتجسيم الخيال كما يفعل المتصوفون، وهو بذلك يكون قد مهّد السبيل للاتجاه الجديد في الشرق والغرب معاً... و"لابن باجة" أثر كبير في أوروبا المسيحية، وله فضل عظيم في ازدهار الفلسفة بالمغرب، وممّن تأثر به وبآرائه العلمية والفلسفية "جابر بن الأفلح" في دراساته وبحوثه في علم الفلك و"البطروجي" أيضاً في علم الفلك، و"ابن البيطار" في ميدان الطب والعلاج، وكذلك "ابن طفيل" و"ابن رشد" الذي كان أحد تلاميذه»[1].

هذا وقد قد ساهم الفيلسوف "ابن باجة" بعبقريته الفذّة في نقل الفكر الفلسفي الإسلامي إلى الأقطار الأوروبية المفتوحة فقد «برع في الفلسفة، بل كان أوّل من بدأ بها بالأندلس، ومن مؤلفاته في الفلسفة " رسالة الوداع وكذا رسالة تدبير المتوحّد"، فأما "رسالة الوداع" فقد أبان فيها فضل العلم والمعرفة وفضل التأمّل الفلسفي وأنّهما وحدهما يؤديان بالإنسان إلى معرفة الطبيعة، ويعينانه على تعرّف نفسه ويوصلانه إلى العقل الفعّال كما يتعرّض فيها للنفس الإنسانية ونهايتها، وأمّا كتاب "تدبير المتوحّد"

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص82، 83

فإنّه تعرّض فيه للمدينة ووصفها على نحو مختصر من جمهورية "أفلاطون"...وقد ترجمت "رسالة الوداع" إلى العبرية، وفيها أبان عن العقل الأول، وبحث في الغاية الحقيقية من وجود الإنسان والغاية من العلم وهي القرب من الله، والاتصال بالعقل الفعّال الذي يفيض منه، وفي هذه الرسالة آراء في اتحاد النفوس أخذها منه "ابن رشد"، وقد عاش "ابن باجة" في عصر الموحدين أي العصر الذي اضطهد الفلسفة والفلاسفة...وقد استفاد من كتب المشارقة حين وصلت إلى الأندلس ككتب ابن سينا والفارابي والغزالي، ومن أشهر فلاسفة الأندلس "بنو زهر" وهم سلسلة من العلماء والأطباء ظهروا في الأندلس وهم ستة أشخاص، ولم يصلنا من فلسفتهم إلاّ النزر من الآراء والأفكار»[1].

_ب/ابن رشد:

و"ابن رشد" أيضاً من أحد أعمدة الفلسفة الإسلامية، الذين كان لجهودهم أثر بارز في الغرب الأوروبي، واسمه الكامل «القاضي أبو الوليد محمد بن محمد بن رشد، ولد بقرطبة وكان من المشهورين بتحصيل العلوم، ومن المتميّزين في الطب، وله فيه كتاب "الكلّيات" الذي أجاد في تأليفه، ويعرف العالم الإسلامي "ابن رشد" على أنّه فيلسوف بل آخر فلاسفة العالم الإسلامي، والواقع كذلك فهو أكبر الفلاسفة على الإطلاق، وكان لمذهبه وآرائه الفلسفية أثر كبير في فلاسفة الغرب خلال العصور الوسطى وتأثيره جعل أوروبا تخرج من عصور الظلام والجهل إلى نور العلم والتّفكير الصحيح السليم، وقد شرح "ابن رشد" فلسفة أرسطو يوم لم يكن أحد في أوروبا يستطيع فهمها، حتى عُرف في أوروبا باسم "الشارح" ويعنون بذلك شارح فلسفة أرسطو، ولكنه لم يكن شارحاً فحسب، إنّما محللاً ومعلقاً ليبرز شخصيته الخاصة به...وله كتاب مشهور هو "تهافت التهافت" الذي يَرُدّ فيه على الإمام الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة"»[2].

وفي الحقيقة أنّ الفضل في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في شتى المجالات المعرفيّة يعود في مجمله لخلفاء الإمبراطورية العربية الإسلامية الذين بسطوا للعلم كل جناح بدءاً بالخلفاء الأمويين ثم العباسيين من بعدهم، «ففي خلافة المأمون زاد التأثير الكلاسيكي في بغداد، فكان الخليفة يرسل باستمرار مبعوثين إلى اللغة العربية، ولمّا كان

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص89
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص85

المأمون رجلاً مؤمناً بالعقل إلى أقصى الحدود، فقد حاول التوفيق بين الدين والعقل (قبل أن يفعل ذلك توماس الإكويني بعدّة قرون)، وكان هو المحرّك الرئيسي لبدء مهمة وضع فلسفة القدماء في قالب عربي، وقد أنقذ الكثير من الكتب اليونانية، مثل كتب "جالينوس" التي وصلت إلى الغرب بفضل هذه الترجمة العربية، أمّا كتابا "الشعر" و"الخطابة" لـ"أرسطو طاليس" ومحاورات "أفلاطون" فقد أصبحت هي الكتب المفضلّة لدى المفكرين البارزين ومن خلال "ابن سينا" و"ابن رشد" نعرف أنّ الأرسطوطالية والأفلاطونية الجديدة قد وصلتا إلى أوروبا (على سبيل المثال توماس الإكويني) وأثّرتا فيها، وهذه المهمة العظيمة في الترجمة التي استمرّت جيلاً بعد جيل،كما أشار إلى ذلك بحق "خوسيه مونيوث سنديو" سوف تصبح هي النموذج الذي اتّبعه في اسبانيا الملك "ألفونسو العاشر" الملقّب بـ"الحكيم"، والذي كان قريباً جداً من النزعة الشرقية في هذا المنحى»[1].

وعلى غرار الخليفة المأمون فقد كان «"للحَكَم الثاني"[2]* أكبر الفضل في بدء تلك الحركة العلمية فقد اهتمّ اهتماماً كبيراً بتثقيف شعبه، وإذا كان أبوه "عبد الرحمان" قد اهتمّ بالسياسة والاقتصاد فقد جعل "الحَكَم" كلّ هدفه السير بالأندلس قدماً في طريق العلم والمعرفة، ليتبوأ أعلى مكانة بين الأمم المتحضّرة ولا يعني أنّ أسلاف "الحَكَم" لم يهتمّوا بالحركة العلمية لقد كانوا هم الذين جعلوا من كل مسجد مدرسة وأنشأوا في كل حيٍّ داراً للكتب، وزودوها بمئات الألوف من الكتب التي جعلوها في متناول الجميع، ولكننا نعني أنّ "الحَكَم" قد بلغ الذروة بما قدّمه للعلم والعلماء، لقد أنشأ على سبيل المثال سبعا وعشرين مدرسة جديدة يتعلم فيها أبناء الفقراء مجاناً ودفع من ماله الخاص أجور معلّميها، كما ساهم بنفسه في كلّ نواحي النشاط العلمي والأدبي في قرطبة، واستغلّ الثروات الضخمة التي تركها له أبوه في الإنفاق على الأبحاث العلمية وشراء الكتب

---

[1] لوثي لوبيث بارلت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص39، 40

*3 هو الحَكَم بن عبد الرحمان الثالث الناصر الملقب ب" المستنصر"، اعتلى الحكم الثاني العرش في الفترة ما بين (350إلى 366ه/921إلى937م)، وكان كبير السن حيث كان وقتذاك في السابعة والأربعين من عمره، وهذا راجع إلى طول عهد أبيه الخليفة عبد الرحمان الناصر، وقد كان المستنصر أكبر أولاد أبيه، وكان أبوه قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته، وولاّه عهده وقربه، واعتمد عليه في كثير من الأمور، فكان ذا خبرة بشؤون الحكم والسياسة، فتولّى الخلافة ولديه تجربة في فنّ الحكم، وقد عرف بحسن سيرته وعدله وتقواه وورعه، وقد كان المستنصر عاشقاً للكتب مولعاً باقتنائها حدّ الهوس،حتى سمّي لذلك بدودة الكتب، ومن أهمّ منشآت قرطبة في عهد المستنصر كانت بلا شك المكتبة التي سار بذكرها الركبان، وعُدّت واحدة من كبرى مكتبات العصور الوسطى، وفي عهد المستنصر وصلت الأندلس إلى أعلى درجات الرقيّ الحضاري، صاحبته نهضة علميّة وحضاريّة غير مسبوقة.(ينظر:مجلّة العلوم والدّراسات الإنسانيّة_المرج، جامعة بنغازي: جهود الحَكَم المستنصر العلميّة والثقافيّة، العدد الخامس، مارس1015م).

وانتشر رجاله في كلّ مراكز الثقافة الإسلامية يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات، ويدفعون أغلى الأثمان بغية الحصول عليها، بل وكانوا يصادقون تجار الكتب في كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو بسبيله إلى الصدور وكان يحدث كثيراً أن يشتروا الكتب من مؤلفيها أو ناشريها لتصدر في الأندلس قبل أن ترى النور في البصرة أو الموصل فقد كان "الحَكَم" يجد متعة كبيرة في أن يكون أول قارئ لما يصدر من الأبحاث الجديدة»[1].

وليس هذا وحسب فقد كان الخلق الكريم والعدل والمساواة من أهم الفلسفات التي لم يفهمها الغرب على الإطلاق، فقد كان الخلفاء العرب خير مثال لفلسفة الحُكم العادل الصادق وعلى سبيل المثال فقد كان «الأمويون في أشخاصهم وفي مدى إخلاصهم غير المصطنع يمثّلون دور الحكام المسؤولين، العارفين بحدود ما يجب عليهم نحو رعاياهم، فربما كانوا في جملتهم خير مثل للحكّام الذّين يعملون لخير الرعيّة دون أثرة واستبداد ويغلّبون الجانب الديمقراطي على جانب الحكم المطلق، وينظرون إلى الأمور_في الأكثر_من خلال العدالة والتقوى أكثر من نظرهم إلى المصالح الذاتية، ويقدّمون جانب الشورى على رأي الفرد»[2].

كل هذه الشيم والأخلاق لم يستنبطها العربي المسلم من الفلسفة اليونانية والإغريقية ولا ممّا جاء به أفلاطون وأرسطو بل هي نتاج عقيدة سمحة، ترفض الذلّ والاستعباد، والحقد والظلم والحسد، كلّها فلسفات وقف أمامها الغرب في ذهول، فمدينة أفلاطون الفاضلة لا تكفي لتشمل كلّ هذه الخصال، لأنّها فضائل الفضائل، «وإنّا لنجد المصادر تفيض بالثناء على خصائص العدل في أولئك الحكّام، فكانوا يتحرّون أحوال الرّعية، ويجلسون للمظالم، ويقدّسون حكم القضاء، ويحاربون في أنفسهم ما قد يجدونه من هوى جامح فقد كان عبد الرحمان الداخل على سيرة جميلة من العدل، وكان هشام ابنه حسن السيرة متحيّزاً للعدل، يحاول التشبّه ب"عمر بن عبد العزيز" في سياسته، وكان يبعث إلى الكور[3]* قوما عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، وكان الأمير محمد عظيم الأناة متنزهاً عن القبيح، يؤثر الحقّ وأهله ولا يسمع من باغ ولا يلتفت إلى قول فرائغ، محبوباً في جميع البلدان، مراقباً لمصالح الرعيّة، أما عبد الله فكان مقتصداً في ملبسه

[1] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص500، 501
[2] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمّان، الأردن،1997، ص17
*[3] الكور: هي الأراضي التي استولى عليها العرب ولم تقسّم وتخمّس كما فعل رسول الله _صلّى الله عليه وسلّم_فيما فتح بل كان لكل يد ما أخذت.

وشكله وجميع أحواله، مشيعا للصدقات، محباً للخير ولأهله،كثير الصلاة، دائم الخشوع، شديد الوطأة على أهل الظلم والجور، وقد خصّص يوما في الأسبوع يقعد فيه على باب قصره للنظر في الظُّلمات ومن خلال هذه الأوصاف لهؤلاء الأمراء وغيرهم، نستشفّ البساطة في تناول الأمور، وقلّة الانغماس في نعيم الدّنيا أو إهمال أمور الرعيّة، وقد ظلّ الأمر كذلك على درجات متفاوتة»[1].

لقد أسهمت الأخلاق الحميدة والحُكم الرشيد للخلفاء المسلمين خلال حكمهم للأندلس في ازدهار تلك البلاد، فأصبحت مدنها وخاصّة قرطبة وغرناطة وإشبيلية ومرسية وجيان... قبلة لكل طالب علم ومعرفة.

ب/انتقال الطب:

يعدّ الطب علماً ضرورياً في كل زمان ومكان، وهو في الحضارات القديمة من المهن النبيلة التي لا غنىً عنها، ففرضت وجوده الحاجة الماسّة إليه، وكلّ حضارة لها طبّها الخاص بها، «ومن المعروف أنّ العرب قد عرفوا الطب منذ العصر الجاهلي، لكنّه كان طباً بدائياً اعتمد على الكهانة والتعاويذ والتمائم أكثر من اعتماده على الاستقصاء ومعرفة أسباب الداء قبل وصف الدواء، ومع ذلك فقد وجد إلى جانب العرّافين والكهّان جماعة من الأطباء قدّموا النصائح السليمة للمرضى ووصفوا لعلاجهم بعض الأعشاب والنباتات ذات الأهمّية المعروفة في العلاج»[2].

هذا وقد كان الاتصال قائماً بين العرب وغيرهم من الأمم والحضارات الأخرى كالفرس والروم والفراعنة المصريين وحضارة ما بين الرافدين، عن طريق التجارة والرحلات القريشية خاصة في الشتاء والصيف، ولهذا فقد «كان العرب على صلة وثيقة بمصر والفرس والروم، وقد استفادوا من التطوّرات العسكريّة والعلمية والسياسية عندهم، وكذلك استفادوا من الطب خاصة من المصريين والبابليين، وإن كانوا يمزجون العلاج الطبّي بالكهانة والعرافة، واستخدموا العسل كدواء، كما عالجوا الجسم بالبتر والكيّ والحجامة، وقد كانت الصلة الوثيقة بين الطبّ والسحر عائقاً، فقد كان الطبيب

[1] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص17
[2] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص79

يُعدّ ساحراً أيضا، يداوي المرضى ويشفي المريض بسحره، كذلك كان الكهّان يداوون المرضى، وبالرغم من ذلك كانت للطبيبة مكانة كبيرة»[1].

ومع ظهور الإسلام وانتشاره في معظم أصقاع المعمورة تطوَّر الطِّب ليُصبح علماً قائماً بذاته حيث حرَّم الإسلام السحر والشعوذة، ونهى الرسول الكريم_صلّى الله عليه وسلّم_ عن إتّباع السحرة، وحَثَّ على التداوي بالأعشاب الطبيّعية حتى أنَّ هذا النوع من التداوي لا يَزَالُ قائماً عند العرب ويسمونه ب"الطب النبوي" أو ما يعرف حالياً عند الغرب ب"الطب البديل"، والذي ساعد في كثير من الأحيان على شفاء أمراض استعصى على الطب الحديث علاجها، وعلى سبيل المثال نذكر «حديث النبيّ_صلّى الله عليه وسلّم_ الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبو هريرة _رضي الله عنه_أنَّ رسول الله _صلّى الله عليه وسلّم_ قال: "في الحبّة السوداء، شفاء من كلّ داء، إلاّ السام، والسام: الموت"، وعنه_صلّى الله عليه وسلّم_حديث آخر رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر يقول فيه: "عليكم بهذه الحبّة السوداء، فإنّ فيها شفاء من كلّ داء إلاّ السام"»[2].

هذا وقد أوصى الرسول_صلّى الله عليه وسلّم_ أصحابه وأهل بيته بالتداوي بالأعشاب ومما يوجد في الطبيعة من نباتات طبيّة، وفي الذكر الحكيم ورود لبعض هذه الأنواع من الأشجار المباركة وفوائدها المتعدّدة كما جاء القرآن الكريم والسنة النبوية ليوجبوا الطهارة كونها جزءا مهماً لوقاية المسلم ممّا قد يصيبه من الأمراض والعلل، ولهذا «دعا الإسلام إلى النظافة والطهارة في الجسم والملبس والمسكن والطريق، لأنّ القذارة هي المصدر الرئيسي لميكروبات الأمراض،فالمسلم لا يدخل الصلاة إلاّ بالنظافة، أمّا الرسول الكريم محمد_صلّى الله عليه وسلّم_ فقد وضع في أحاديثه سبل الوقاية من أمراض الجهاز الهضمي، وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدعو إلى الرعاية والوقاية الصحيّة»[3].

---

[1] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص30

[2] الحبّة السوداء(حبّة البركة):موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي، عبر الرابط الإلكتروني: _http: //www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=8201&id=182&sid=183&ssid=184&sssid=185 رفع بتاريخ: 2018/05/03

[3] خالد بن محمد مبارك القاسمي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص80

إن علم الطب قبل ظهور الإسلام وبعده وخلال القرون التاريخية الماضية «قد مرّ بمراحل، وتطوّر خلال حضارات مختلفة، وإن كان قد بلغ أوجّه في الحضارة المصرية القديمة، والتي لم ينتقل منها إلاّ اليسير إلى آسيا، ثم مدرسة الإسكندرية بعد أن أصبحت مركزاً للإشعاع في نهاية العصر اليوناني وبداية العصر الروماني، والجدير بالذكر أنّ هذا العلم، الذي يمثّل العصر القديم احتاج إلى وقت غير قصير لكي تعود إليه الحياة مرّة أخرى بعد عصر الترجمة على أيدي العلماء والأطباء في البلاد التي فتحها الإسلام»[1].

لقد أقرّ الإسلام لكل المسلمين بالحق في التعّلم في شتى دروب المعرفة التي تدرّ عليهم وعلى الإنسانية جمعاء بالخير إلاّ ما حرّم الله في كتابه العزيز، وبعد ظهور الإسلام شجّع الرسول_صلّى الله عليه وسلّم_على طلب العلوم ولو كانت في أقصى بقاع الأرض، فقد أمر بطلب العلم ولو كان في الصين، وكذا طلبه منذ الصغر حتى المشيب حيث يقول_صلّى الله عليه وسلّم_: "أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد".

ولهذا السبب «لم يلبث أن ازدادت أهمية الطب عند العرب في ظلّ الإسلام، إذ إنّ المسلمين آمنوا بأهمية الطبّ، وعنوا به عناية فائقة، فبدأوا بترجمة كتب اليونانيين الطبّية مثل: "جالينوس" و"أبقراط" وغيرهم ولكن العرب لم يكتفوا بما رأوه في تلك المؤلّفات من معلومات، وإنّما عدّلوها وصحّحوها وأضافوا إليها وكتبوا أبوابا جديدة في الطبّ والصيدلة لم يسبقهم إليها إنسان، معتمدين في ذلك على مشاهداتهم وتجاربهم الخاصّة»[2].

هذا وقد اهتمّ العرب بمختلف العلوم التي أتيح لهم تدارسها والاطّلاع عليها و«يُعَدّ الطبُّ والفلك والرياضيات والكيمياء أهمَّ العلوم التي عُنِي بها العرب، وأتم العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وتُرجمت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوروبا، ولم يَتْلَف قسمٌ كبير منها كما أصاب كتبَهم الأخرى»[3].

إنّ ما ساهم به الأطباء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية كان عظيما، فقد قبض العرب بأيديهم خلال عدّة قرون على مشعل النور العقلي، وتمثّلوا جميع المعارف البشرية، فعندما «اكتمل عصر الترجمة في صدر العصر العباسي ظهر عدد من الأطبّاء العرب المسلمين الذين ساهموا في النهضة الطبّية، وبلغ من كثرتهم، أنّ

[1] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، ص32
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص80
[3] غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص503

الحكومات المحلّية كانت تُجريْ لهم امتحانات رسمية، وتمنحهم شهادات للعمل وكان لهم في كلّ مدينة رئيس هو الذي يجيز من يرى فيه الكفاءة للتّطبيب وأشهرهم سنان بن ثابت رئيس أطبّاء بغداد وتخصّص الأطبّاء في الشرق والأندلس، فهناك الجرّاح، والفاصد، والكحّال وطبيب الأسنان، وطبيب أمراض النّساء، وطبيب المجانين(طبيب الأعصاب)»[1].

هذا وقد «شهد العصر العباسي بخاصة في عهد الخليفة هارون الرّشيد والمأمون العصر الذهبي للتقدّم العربي وأصبحت بغداد مقر الخلافة الإسلاميّة وعروس الزّمان وعاصمة العالم، وقد أنشأ هارون الرّشيد المستشفى العام في بغداد، وأقيمت بعده مستشفيات أخرى، كما أنشأ العباسيون عيادات لنقل الخدمات الطبيّة إلى كافّة الأرجاء، فظهر بذلك طبّ عربي إسلامي أصيل، ونظريات علميّة مبتكرة»[2].

ومنه فإنّ الطب يعدّ من الأولويات التي عُنِي بها العرب على طول حضارتهم التي امتدّت مدّة طويلة من الزمن، وخاصّة في شبه الجزيرة الإبيبرية، وقد تطوّر الطب عند العرب تطوّراً ملحوظاً نظراً لبعده عن السحر والشعوذة والخرافات التي سيطرت في الحقيقة على الطبّ الغربي وخاصّة الأوروبي، بسبب جهلهم بكينونته، حيث كان الطبّ يعد عذاباً من الآلهة يحرّم علاجه أو التخفيف منه.

وتذكر المصادر الغربية _في اندهاش_ هذا المجد والتطوّر الذي وصل إليه العرب المسلمون في جميع المجالات وخاصة المجال الطبّي، ومن هذا ما ذكرته المستشرقة لوثي لوبيث بارالت قائلة: «"وفي الإمبراطورية العربية...ازدهرت كلّ فروع المعرفة، الفقه والفلك والتنجيم، والجغرافيا والحساب، وعلوم الدين والطّب»[3].

وزيادة على ذلك تصف المستشرقة الغربية الانتماء الشرقية الروح "زيغريد هونكه" ما كانت عليه العرب من حبً جمّ للعلوم وشغف بالكتب، مبيّنة السبيل الذي سار عليه العرب المسلمون في التحصيل العلمي في كلّ الميادين لمجابهة غيرهم من الأمم فتقول: "كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة وحمت الإسلام من الجمود وأجبرته على أن يسلّح نفسه علميا وأن يتطوّر بالقوى العقلية وينهض بها من سباتها وساعده على ذلك المطالب العديدة المنبثقة من شعائر الدين أو

[1] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص510
[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص80
[3] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص40

من الحياة اليومية للشعوب، واجبات عديدة ومسئوليات جسيمة: فمعالجة المرض ضرورية، وحماية الملايين من سكان المدن الكبيرة من الأوبئة وإمدادهم بالدواء الناجع يتطلّب أبحاثاً علمية دقيقة، وأدخلتهم حاجات تلك الملايين في عالم الحيوان والنبات ليدرسوه وينهضوا به، فنُظّم ريُّ الأرض ومسحها، ورُصدَت الكواكب وحركتها، ونظّمت الرّحلات، وأخذ كل شيء مكانه وزمانه اللازم له، ففي كل حقل من حقول الحياة صار الشّعار للجميع "تعلّم وزد معارفك قدر إمكانك وأينما استطعت"، وبأقدام ثابتة ونفوس هادئة مطمئنة تعرف حقّها وتؤدي واجبها، أقبل العرب على ما وجدوا من معارف فاغترفوا منها قدر جهدهم، وما رأوا فيه نفعاً لهم»[1].

وتضيف بمثال حيّ عمّا كانت تكابده القارّة الأوروبية من تخلّف وخاصة في المجال الطبّي والنظافة الشخصية، فتقول «ولكنّ الطرطوشي خلال تجواله في بلاد الفرنجة، صادفته أشياء اقشعرّ منها شعر بدنه وهو المسلم الذي فُرض عليه الاغتسال والوضوء خمس مرآت يومياً، إسمعه يقول:" ولكنّك لن ترى أبداً أكثر منهم قذارة إنّهم لا ينظّفون أنفسهم ولا يستحمّون إلاّ مرة أو مرّتين في السنة بالماء البارد، وأما ثيابهم، فإنهم لا يغسلونها بعد أن يرتدوها حتى تصبح خرَقا بالية مهلهلة»[2].

لقد كان الغرب الأوروبي على درجة كبيرة من الجهل في مجال الوقاية من الأمراض، فقد كانوا يعتبرون المرض عقاب من الله لا يحق على الأطباء علاجه ولا التخفيف منه، وتصرّح "هونكه" واصفة الدرجة الرفيعة التي وصل إليها العرب والمسلمون في مجال الطب قائلة: «ثمّ أين هو البلد الذي عُرفَ فيه الطبّ بشموليته وعمقه وازدهاره كما كان الطبّ العربي؟ وأين هي الدولة التي عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الأخصائيين بشتى حقول الصّحة وتركيب الأدوية والعقاقير كما كانت الحال عند هذا الشّعب؟ وهل كانت للمستشفيات الحديثة في الأصقاع العربية آنذاك مثيل في أيّ طرف من أطراف الأرض؟، إنّ وسائل العلاج عندهم تتحدّث ببلاغة عن عظمة أبحاثهم، كما إنّ علم الصّحة عندهم الأروع مَثَلٌ يُضرَب ولمَ العجَب والدهشة، والوضع كان كما نعلم؟ ألم يطلب الفرنجة مساعدة العرب الطبّية ويلحّوا في التماسهم؟»[3].

[1] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص373
[2] المرجع نفسه، ص54
[3] المرجع نفسه، ص217

وخلال التاريخ الطويل للحضارة العربية وازدهارها وخاصّة في شبه الجزيرة الإيبيرية ظهر مجموعة من الأطبّاء المقتدرين أهمهم:

1/ أبو بكر محمد بن زكريّا الرّازي:(ت313ه_925م)
2/ أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا(ت428ه_1037م)
3/ أبو مروان ابن زهر الاشبيلي(1091_1162م)
4/ علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي الملقّب بابن النّفيس:(687ه/1288م)
5/ خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي:(427ه_1036م)
6/ عبد اللطيف بن يوسق بن محمد بن علي البغدادي(629ه_1231م)

وسنأخذ فيما بعد العالمين الطبيبين الأولين لنستدلّ بهما على أثر الحضارة العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي، «وقبل الحديث عن أثر الطب الإسلامي على أوروبا نستعرض حالة الطب في أوروبا، حيث كانت أوروبا في حالة من الفوضى والجهل، وكانت معرفتهم بالعلوم الطبية ضئيلة جداً بسبب تزمت رجال الدين، إذ إنّ الكنيسة كانت تحرّم التطبيب أو معالجة المرضى، وتعتبر أن المرض عقاب إلهي من السماء يجب ألا يتدخل الإنسان بوسائل لتخفيف الألم أو الحد منه، وتفرض عقوبات صارمة على كل من يخالف ذلك وكان الطبيب يشارك في تعليمه رجال الدين في الكنيسة الذين يحاولون حشر الروح الدينية في وصفات الأطباء أثناء العلاج ،فقد كانوا يرون أن تطبيق الطقوس الروحية جزء مهم إلى جانب الأدوية لشفاء المريض أما العلاج الطبي الحقيقي فلم يكن يتعدى تناول نقيع من بعض النباتات والحجامة ،التي لا يعتمد في تطبيقها على أي معلومات تشريحية، وأمّا مجال الجراحة فقد كان أسوأ إذْ كان الأطباء في تلك الحقبة يتحاشون أن يمارسوا مهنة الجراحة حتى لو كان فيها أمل كبير لإنقاذ المريض من هلاك محقق، لا يمكن دفعه إلا بإجراء عملية جراحية، وذلك لخوفهم من وفاته بسبب العملية التي أجروها له ليعلموا به ما يشاءون أما المستشفيات في أوروبا فقد كانت آنذاك ملجأ لليتامى والمهاجرين والفقراء ومحطات لاستراحة الحجاج العائدين

من بيت المقدس، والذاهبين إليه، ولم يكن للمرضى فيها إلا بعض الأسرّة من أركانها المهملة» [1].

وكما أسلفنا الذكر سنستدلّ على أثَر أطبّاء الإسلامي في الطبّ الغربي بعالمين طبيبين اثنين هما:

_ أبو بكر محمد بن زكريّا الرّازي:(ت313ه_925م): وهو«من الأئمة في صناعة الطبّ، ومن أهل الريّ، ولد وتعلَّم بها وسافر إلى بغداد بعد سنّ الثلاثين، يسمّيه كُتَّاب اللاتينية(رازيس Rhazes)، تولَّى تدبير مارستان الريّ، ثمَّ رياسة أطبّاء البيمارستان المقتدري في بغداد... وكان أوّل من دوَّنَ من العرب المسلمين ملاحظاته على مرضاه ومراتب تطوُّر المرض، وأثر العلاج فيه، وهو أوّل من وصف الجدري والحصبة وقال بالعدوى الوراثيّة، واستخدم الحيوان في تجارب الأدوية، ومن مؤلفاته: "الحاوي"، "رسالة في الجدري والحصبة"، "الكتاب المنصوري"، "كتاب الأسرار"، "الكتاب الجامع"»[2].

_وأبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا(ت428ه_1037م) «أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى، نشأ وتعلَّم في بخارى، طاف البلاد، وناظر العلماء، توفّي في همذان، عرفته أوربة باسم (Avicenne)، وله عندهم مكانة رفيعة، اشتغل بالعلم الطبيعي والإلهيَّات، ثمَّ درس علم الطبّ واستوعب الكتب المصنَّفة فيه، وعالج "تأدُّباً لا تكسُّباً" وقصَده فضلاء هذا العلم وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعه، والمعالجات المقتبسة من التَّجربة، ولقد انتقل علم الرَّئيس "ابن سينا" سبعة قرون متوالية، فكان المرجع في الفلسفة والطبّ والعلم الطبيعي... وبقي كتابه "القانون" في الطبّ العمدة في تعليم هذا الفن حتَّى أواسط القرن السَّابع عشر في جامعات أوربة... وابن سينا أوّل من وصف التهاب السّحايا الأوّلي وصفاً صحيحاً، ووصف أسباب اليَرقان، ووصف أعراض حصى المثانة، وانتبه إلى أثر المعالجة النفسانية في الشّفاء»[3].

---

[1] زكيّة بالناصر القعود: أثر علم الطب الإسلامي على الطب في أوروبا، المجلّة الليبية العالمية، العدد8، جامعة بنغازي كلّية التربية المرج، يوليو 2016، ص3 .

[2] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص510، 511 .

[3] المرجع نفسه، ص511 .

هذا وتذكر "زيغريد هونكه" فضل هاذين الطبيبين على أوروبا قائلة: «إنّ كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر، وكل صيدليّة ومستودع أدوية في أيامنا هذه، إنّما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقريّة العربية، كما أنّ كلّ حبّة من حبوب الدّواء، مذهّبة أو مسكّرة إنّما هي كذلك، تذكار صغير ظاهر، يذكّرنا باثنين من أعظم أطبّاء العرب، ومعلّمي بلاد الغرب»[1].

وليس هاذين الطبيبين وحسب، بل إنّ كلّ أطبّاء العرب والمسلمين ساهموا بشكل فعّال في النهضة الأوروبية الحديثة، «"فابن النّفيس" مثلاً يعدّ أوّل من اكتشف الدورة الدّموية منذ أوائل القرن15، أي قبل "وليم هارفي" بأربعة قرون، وأوّل من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التَّاجيَّة ناقضاً بذلك نظرية "جالينوس"، ومن أهم كتبه "الموجز في الطب" و"فاضل بن ناطق" و"الشامل في الطبّ" و"بغية الفطن من علم البدن" و"شرح تشريح القانون" أي شرح قانون "ابن سينا"، وقد كان "ابن النّفيس" معتدًّا بنفسه مع لطف وعلم، وله مقولة شهيرة "لو أعلم أنَّ تصانيفي لا تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها"»[2].

وعلى غرار "ابن النّفيس" ظهر أطبّاء عرب أكفّاء ساهموا بالقدر الوفير في النّهوض بأوروبا المظلمة ومن هؤلاء «"أبو مروان ابن زهر الاشبيلي" فقد كان لترجمة كتابه "التيسير" إلى اللاتينية والعبرية أعظم الأثر في الطبّ الأوروبي وأهم ما برع فيه "ابن زهر" الوصف الإكلينيكي، وترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزوميّة والتهاب الـتَّامور، ودرن الأمعاء والشَّلل البلعومي... كما أنّ الطبيب "خلف بن عبّاس الزهراوي" كان أوّل من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة، وبحث في التهاب المفاصل وفي السلّ، وهو من كبار جرَّاحي العرب المسلمين، وأستاذ علم الجراحة في أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوروبية حتى القرن17، من أشهر كتبه "التصريف لمن عجز عن التأليف".... ومن العلماء العرب المسلمين المكثرين في التصنيف في الحكمة وعلم النّفس والطّب والتاريخ والبلدان والأدب، "البغدادي" ويعرف بـ"ابن اللّباد" أو "ابن النقطة"، اعتمد على التّجربة الحسّية ،

[1] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص334 ،335
[2] ينظر شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السّابقة، ص512، 513

وصحَّح أخطاء "جالينوس" بنظرة علميّة سليمة وجعل العالم موقوفاً على التّجربة، ويذكر أنّ اليهود كانوا يكرهونه وحاولوا سرقة كتابه "الإفادة والاعتبار"»[1].

كان هؤلاء من خيرة أطبّاء العرب الذين ساهموا بالغالي والنّفيس من أجل إثراء المجال الطبّي في المشرق والمغرب، وظلّت مؤلفاتهم لقرون عديدة المرجع الوحيد الذي اعتمدت عليه أوروبا الحديثة في نهضتها، ومن هذا المنطلق «أثنى "بوستل" على ثراء التراث العربي، وبخاصة في أعمال الفلك والطبّ العملي وهاجم المطببين الجدد (Neotristae)، الذين شكّكوا في قيمته قائلاً: لا يمكن لأيّ إنسان أن يتجاهل وسائل التطبب والأشربة العربية، وما قاله "ابن سينا" في ورقة أو ورقتين أكثر ممّا قاله "جالينوس" (Galen) في خمسة أو ستّة مجلّدات ضخمة»[2].

وكنتيجة للتّقصير الذي وجده الغرب في مؤلّفات اليونان والإغريق القديمة، انكبّوا على المؤلّفات العربية في الطبّ يترجمونها ويفيدون منها، ولهذا «فقد تأثّرت الدراسات الأوروبيّة إلى حدٍّ بعيد بالدراسات العربية فقد كان كتاب الحاوي للرّازي المرجع الوحيد الذي اعترف به في جامعات أوروبا، وقد ترجم "جيراردو" كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" لـ"الزّهراوي الأندلسي"، والجزء الأخير خاص بالجراحة الطبّية وكتاب "القانون" لـ"ابن سينا"، وترجم الطبيب الصقلّي "أبو فرج اليهودي" كتاب "الحاوي" في علم التداوي لـ"الرازي"، وقد بقي كتاب الزهراوي في الجراحة يُستخدم بجامعة "أكسفورد" حتى القرن الثامن عشر، وأخذ الأوروبيون كثيراً من التعابير العربية مثل "الشراب Syrup"»[3].

وإنّ هذه الحقائق وغيرها لأكبر دليل على ما حقّقه الأطِبَّاء العرب المسلمون في أوروبا، بل في العالم أجمع، وما تركوه من أثر بارز في نفوسهم وفي حياتهم اليوميّة، ليكون هذا هو دين الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوروبية الحديثة وسيبقى جهود علمائنا راسخة في التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الثاني: انتقال الرياضيات وعلم الفلك.

أ/ انتقال الرياضيات:

[1] ينظر: المرجع السابق، ص من511 إلى514 .

[2] يوهان فوك: الدراسات العربية في أوربا حتى مطلع القرن العشرين، تر: سعيد حسن بحيري ومحسن الدمرداش، ط1، القاهرة، مصر، 2006، ص120، 121 .

[3] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، ص144 .

لقد عرفت البشرية جمعاء الحاجة إلى الحساب في جميع المعاملات اليوميّة، وقد كانت تُجرى تلك العمليات _عمليات الحساب_ بطرق بدائيّة جداً، فقد كان العدّ على الأصابع وبالحصى أولى مراحل هذا العلم الشاسع، فقد «كان نصيب العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام من علم الحساب ضعيفا جدا بالنسبة للأمم الأخرى، وتفيد المصادر العربية العديدة بأنّ الحساب في الدواوين في القرن الأول للهجرة في مصر كان باللغة القبطيّة، وفي سوريا بالإغريقية، وفي العراق وبلاد فارس بالبهلوية (أي الفارسية المتوسطة) وقد استمرّت الحالة على هذا النحو إلى أن أمر عبد الملك بن مروان في سنة 81ه، والحجّاج بن يوسف الثّقفي في سنة 87ه، وعبد الله بن عبد الملك بن مروان بترجمتها إلى العربية»[1].

ومع هذا فقد تداركت العرب نفسها وخاصّة في أواخر العصر الأموي وبداية العصر العبّاسي بحيث شكّلت الترجمة عاملاً مهما وساهمت في إغناء الفكر العربي الإسلامي ممّا دفعه إلى الابتكار والتأليف «فقد صارت بغداد مركزاً علمياً مهما في عصر الخلافة العبّاسية، حيث تُرجم العديد من الكتب الرياضيّة وعلم الفلك، بالإضافة إلى الدراسات الفلكيّة المأخوذة عن الهند، وقد تمّ ترجمة العديد من أمّهات الكتب اليونانية مثل أعمال "أرشميدس"، و"أبولونيس" و"بطليموس"، وغيرهم...وعلى موازاة هذا توجّب إعطاء دور ضخم للعادات المحلّية التي تشكّلت على مدى القرون فوق أراضي مصر، وإيران وغيرها، وكذلك أيضا للعلاقات التي أقيمت مع الصين، وقد لعب تمثّل التراث الثقافي دورا كبيراً في تكوّن الرياضيات العربية دون أن تحرمها من الأصالة»[2].

إنّ السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن أيّ أحد هو: من أين جاءت الأرقام؟ ولأجل ماذا؟ وكيف بدأ استعمالها؟

وللإجابة على هذه الأسئلة وجب علينا البحث في تاريخ الرياضيّات، فتبيّن لنا «أنّ الحضارة أو الحياة الإنسانيّة تُبنَى على العلم وحدَه: على العلم الرياضي والعلم الطبيعيِّ، إنَّ لإعداد الطّعام ولعمل الثّياب ولبناء الدّور والقصور والمصانع والمعامل وللزّراعة والصّناعة والتّجارة وللسّباحة والطّيران، وللسَلم والحرب وللدّولة والمدرسة أحكاماً من العلم الرّياضي والطبيعي ولا يمكن لجميع هذه المظاهر من الحياة الإنسانيّة أن تبرُزَ

[1] رمضان الصباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبيّة، ص127
[2] المرجع نفسه، ص127

واضحة ناجحة نافعة إلاّ بتلك الأحكام من العلم، أمّا إذا اتّفق أن قام إنسان بعمل من هذه الأعمال_ثمّ نجح في مشاريعه_ فليس معنى ذلك أنّ نجاحه لم يَقُم على قواعد علميّة، ولكن ذلك يعني أنّ الأحكام العلميّة كانت تأخُذُ مجراها في أعماله كلّها، ولكنّه هو كان غافلاً عن كلّ ذلك»[1]، هذا يعني أنّ كلّ ما يفعله الإنسان في حياته العمليّة خاضع لأحكام مضبوطة ومحسوبة ومتحّكمٌ فيها من قبل قوّة لا نستطيع السيطرة عليها، كالرياضيّات بالضبط، ولكن السؤال الذي بقي مطروحا هو: من أين جاءت الأرقام؟ أو بالأحرى من أين حصل عليها العرب؟

يعدّ القرآن الكريم الكتاب الجامع لكلّ العلوم، والمعلّم الأول للمسلمين ومصدرهم الذي يعتمدون عليه في كلّ أحوالهم فقد دعا الإسلام إلى الأخذ بجميع العلوم التي تخدم المجتمع وترفع من شأنه ومنها علم الريّاضيات وقد ورد في القرآن الكريم دعوتان صريحتان إلى تعلّم الحساب في قوله عزّ وجلّ : «**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**»[2].

وقوله تعالى: «**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**»[3].

وبعد القرآن الكريم تأتي الأحاديث النّبوية الشريفة لتشجّع المسلمين على تعّلم كلّ العلوم بدون استثناء وخاصّة ما من شأنه أن ينفع النّاس كافّة، تشير المستشرقة "زيغريد هونكه" إلى هذا في كتابها فتقول: «لقد أوصى محمد كلّ مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجباً دينياً فهو الذي يقول للمؤمنين "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، ويرشد أتباعه دائماً إلى هذا فيخبرهم بأنّ ثواب التعلّم كثواب الصيام وأنّ ثواب تعليمه كثواب الصلاة، وكان محمد يرى في تعمّق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرّف على قدرة الخالق، وكان يرى أنّ المعرفة تنير طريق الإيمان مردّداً عليهم "أطلبوا العلم ولو في الصين"»[4].

وليس هذا وحسب فقد كان «الرسول يلفت أنظارهم إلى علوم كلّ الشعوب، فالعالم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيّاً

---

[1] عمر فرّوخ: الحضارة الإسلاميّة وقسط العرب فيها، ص29.
[2] سورة الإسراء، الآية رقم 12.
[3] سورة يونس، الآية رقم 5.
[4] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص369

كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر، وعلى النّقيض تماماً يتساءل "بولس الرسول" "paulus" مُقرّاً "ألم يصف الربّ المعرفة الدنيوية بالغباوة"، مفهومان مختلفان بل عالمان منفصلان تماماً حدّدا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب، وبهذا اتّسعت الهوّة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحيّة المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدّنيا كلّها»[1].

ولأنّ الحساب كان موجوداً ومعروفاً لدى العرب المسلمين، والشيء الوحيد الذي كان يحتاجه العرب المسلمون هو الرّمز أو العدد؛ وهذا لأنّ الأمّة الإسلاميّة على غرار «جميع الأمم القديمة لم يكن عندها رموز مستقّلة للأرقام تدوّن بها الأعداد، وكان تدوين الأعداد عند جميع الأمم معقّداً كثير الشّذوذ، وكان الحاسب يجمع (أ) إلى (ط) إلى (ي) إلى (ك) إلى (ن) فيكون مجموعها (ق) أي مائة، ثمّ يضرب (ج) في (د) في (ه) فيكون الحاصل (س)، كان يجمع خمسة أعداد فيرمز إليها بعدد واحد، ويضرب ثلاثة أعداد بعضها في بعض فيحصل من ذلك الضرب الطويل حرف واحد هو (س) أي ستون»[2].

ومن هنا أصرَّ العربي المسلم أن يجد لنفسه طريقة أسهل تساعده على الحساب وتبسّط عليه هذه الرّموز التي أدخلته في دوّامة كبيرة، فقد كانت المعاملات التّجارية الكبرى تثقل كاهل العربي المسلم خاصّة في العصر العبّاسي حيث ازدهرت جميع مجالات الحياة، فكانت الحاجة إلى تطوير العمليّات الحسابيّة شيئاً ضرورياً لابدّ منه، ولأنّ الحاجة أمّ الاختراع، فقد ظهر لهذه الحاجة علماء ورياضيون عرب ومسلمون أفذاذ فحين نذكر «الرياضيات في الحضارة العربية الإسلاميّة، نذكر:

_"أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي:(ت بعد 232ه=847م)

وهو الذي نُعت بالأستاذ بعد أن أقامه المأمون العبّاسي قَيّماً على خزانة كتبه، وأمره باختصار "المجسطي" لبطليموس فاختصره وسمّاه "السند هند"، أي "الدّهر الدّاهر"، من كتبه "الجبر والمقابلة"، و"الزّيج"، و"التّاريخ"، و"صورة الأرض من المدن والجبال" و"عمل الإسطرلاب" و"وصف إفريقيّة" وهو قطعة من كتاب " رسم المعمور من البلاد"»[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص369

[2] عمر فرّوخ: الحضارة الإسلامية وقسط العرب فيها، ص29 ،30

[3] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص541

وفي الجهة المقابلة من العالم «كان عند الهنود رموز للأرقام مختلفة عن تلك التي كانت عندهم للأحرُف، ولكنّهم لم يكونوا يستخدمونها في وجوهها الصّحيحة، لقد كانت تلك الرّموز عندهم من وسائل الزخرف، وفي تاريخ الثقافة الإسلامية، أنّ الخليفة المأمون أمر محمد بن موسى الخوازمي أن يوجد للتّجار طريقة تُسهّل عليهم تدوين معاملاتهم التّجارية، وعَرَفَ الخوارزمي أنّ عند الهنود رموزاً للأرقام فاستعارها ثم استخدمها لتدوين الأعداد وفي حلّ المسائل وفي بناء المعادلات، ولا تزال المعادلة من الدّرجة الثانية تُعرَف عندنا وعند الأغيار باسْم "معادلة الخوارزمي"، وكما نُسمّي نحنُ الأرقام التي نعمَلُ بها "الأرقام الهنديّة" لأنّنا استعرناها من الهنود، فإنّ الأوروبيين قد سَمَّوْا هذه الأرقام "الأرقام العربية" لأنّهم أخذوها منّا وتعلّموا منا طريقة استخدامها، ومن الطريف أن نعلم أنّ الهنود أنفسهم قد استخدموا الأرقام في أعمالهم الحسابيّة بعد أن تعلّموا طريقة استخدامها من المسلمين»[1].

لكّن إقناع الشعب الأوروبي بالأرقام وطريقة استخدامها لم يكن بالأمر الهيّن في البداية لكن سرعان ما تلاشى ذلك الحاجز وأصبح الغرب لا يستخدم غير الأرقام العربية في جميع معاملاته، تقول "زيغريد هونكه" هذا الشأن: «ولمّا كانت الأرقام العربية قد لاقت أوّل الأمر، ذلك العَنَت وبقيت محاطة بالغموض، فإنَّ هذا لم يدم طويلاً، إذْ سرعان ما صار الناس يسخرون من أولئك المتلمعين الذين ما زالوا يستخدمون الأحجار في حساباتهم، فيثيرون ضحك الناس عليهم، مثلهم في ذلك مثل من يأكل الحشائش ومنزله مليء بالأطعمة الشهيّة، وبانتشار المدن والتجارة ظهرت الحاجة الملحّة للتعليم والمعرفة، فخرجت المعارف المخزونة في الأديرة إلى النور، ومن البيوتات التجارية الإيطالية حمل الألمان والفرنسيون والإنكليز والهولنديون معهم إلى بلادهم أخبار تلك العلوم، وما كان بالأمس وقفاً على المدارس والجامعات أصبح بعد اختراع الطّباعة ملكا للشعب كلّه واعتنى معلمو الرياضيات بنشر الأرقام وطرق الحساب العربية في دروسهم وكتبهم التي ألّفوها خصّيصاً لهذا الغرض»[2].

ومن هنا بدأ فضل الرّياضيين المسلمين على الإنسانيّة عامة وعلى الأوروبيين خاصّة، فقد كانت جهود الخوارزّي حقاً مدهشّة «فالخوارزمي هو أحد أئمّة العلماء في

[1] عمر فرّوخ: الحضارة الإسلامية وقسط العرب فيها، ص30
[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص100

عصره الذين جذبهم المأمون إلى بلاطه، وألّف الخوارزمي كتباً عدّة في الجغرافيّة والفلك ترجمها بعد ثلاثة قرون العالم الإنجليزي:
"Athelhart Von Bath"،"أدلارد فون باث" إلى اللاتينية وعُرِّف بها الغرب، وكَتبَ الخوارزمي الخلودَ بتأليفه لكتابين هامّين في الرياضيات حمل الأول منها "حساب الجبر والمقابلة"، يضمّ مجموعة ممتعة من المشاكل الرياضيَّة التي يعنينا أمرها في الحياة العمليّة، وحينما ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في العصور الوسطى حمل معه اسمه العربي لتصبح كلمة "الجبر" "Algebra" كلمة عالمية تخلّد اسم صاحبها وكان كتابه الثاني كتابا تعليميا، صغير الحجم في علم الحساب شرح فيه استخدام نظام الأعداد والأرقام الهنديّة كما شرح طرق الجمع والطرح والقسمة والضرب وحساب الكسور، ونقل هذا الكتيّب إلى اسبانية وترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وقد حُملَ الكتاب المترجَم إلى الأراضي الألمانية، وترجع أول نسخة منه إلى عام 1143م، وهي مكتوبة بخط اليد وموجدة في مكتبة البلاط في فيينا، ووجدت النسخة الثانية منه في دير "سالم" "Salem"، وهي محفوظة الآن ب"هايدلبرج" "Heidelberg"، ولم يلبث الألمان أن جعلوا من الخوارزمي "شيئا" يسهل عليهم نطقه فأسموه "Algarizmus"، ونظموا الأشعار باللاتينية تعليقاً على نظرياته»[1].

إنَّ أفضال الخوارزمي على العالم أجمع لا تعدّ ولا تُحصى، والتاريخ الإنساني يشهد له ولغيره من علماء المسلمين بهذا الفضل، ومن أهم جهوده نقل الأرقام الهنديّة إلى العربية بادئ الأمر ومنها إلى العالم أجمع فقد «بدأ الخوارزمي يستعمل الأرقام الهنديّة في سنة 813ه، وفي سنة 825م كتب رسالة فيها، ومع الزّمن أصبح اسمه "علما على طريقة الحساب العشريّة"، وأدخل استعمال الصّفر في العدّ والحساب، قال الخوارزمي:"إنّه إذا لم يكن هناك رقم يقع في مرتبة العشرة، استعيض عنه احتفاضا بالسلسلة الحسابيّة بدائرة وهذه الدّوائر الصّغار تسمى "الأصفار"، توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها أعداد"، وعن الخوارزمي انتقل استعمال "الصّفر" إلى أوربة، فعرفه أهلها منطوقاً "صيفر" ونطقه اللاتينيون "زفيروم" واختصره الإيطاليون فقالوا "زيرو" وهذا "الصفر" الذي هو لا شيء، إذا أخذ وحده، والذي يرفع

[1] المرجع السابق، ص75

المراتب الحسابيّة مع العدّ إلى ما شئت من قيم، هو أعظم استكشاف رياضي على مرّ القرون...والخوارزمي هو الذي رتّب ونظّم علم الجبر، فوضعه بشكله الحالي»[1].

وفي هذا الأمر تشيد المستشرقة لوثي لوبيث بارالت على التطوّر الذي وصل إليه العرب المسلمون فتقول: «وكانت التجديدات واضحة: فقد أدخلت تحسينات على استخدام الإسطرلاب وهو من أصل يوناني وإلى هذا أشار "شوسر Chawcer" مبدياً إعجابه بهذا التّقدم العلمي، وأدخلت الأرقام المسماة بالعربية إلى الغرب، وكذلك الهنديّة بواسطة العرب، ولولا ذلك ما استطاع الأوروبيون أن يطوّروا علوم الحساب والرياضيات، وعن طريق الهند وصل مفهوم الرقم العشري والصفر، وكلاهما لا غنى عنه للرياضيات»[2].

و"زيغريد هونكه" هي أيضاً تثمّن ما استطاع الخوارزمي فعله في أوروبا قائلة: «ولم يقتصر الخوارزمي على تعليم الغرب كتابة الأعداد والحساب فقد تَخطَّى تلك المرحلة إلى المعقّد من مشاكل الرياضيات، وما زالت القاعدة الحسابية "Algorithmus" حتى اليوم تحمل اسمه كعَلَم من أعلامها، وعرف أنصاره في إسبانيا وألمانيا وانكلترا، الذين كافحوا كفاحاً مريراً من أجل نشر طريقته الرياضيّة باسم الخوارزميين "Hlgorithmiker" وكان ظفرهم على أنصار الطريقة الحسابيّة المعروفة باسم "أباكوس" "Abacus" فانتشرت الأرقام العربية التسعة يتقدّمه الصفر في كل أنحاء أوروبة»[3].

وتُضيف أيضاً مُثمِّنة الجهود العربية الإسلاميّة وأثرها الجلي في جعل الحياة اليوميّة أسهل وأسرع والدور العظيم للحضارة العربيّة في بناء الحضارة الأوروبية، فَكلُّ ما تتمتَّع به أوروبا اليوم هو نتيجة لجهود عربية إسلاميّة، تقول: «ولسنا نحن الألمان الناس الوحيدين في هذا، فكلّ الأمم المتحضّرة تستخدم اليوم الأرقام التي تعلّمها الجميع عن العرب، ولولا تلك الأرقام لما وجد اليوم دليل تليفونات أو قائمة أسعار أو تقرير للبورصة، ولمَّا وُجد هذا الصَّرح الشامخ من علوم الرياضة والطبيعة والفلك، بل ما وجدت الطائرات التي تسبق الصوت أو صواريخ الفضاء، لقد كرّمنا هذا الشعب

[1] شوقي أبو خليل: الحضارة العربيّة الإسلاميّة وموجز عن الحضارات السابقة، ص541
[2] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص40
[3] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص75، 76

الذي منَّ علينا بذلك الفضل الذي لا يُقدَّر،حين أطلقنا على أرقام الأعداد اسم الأرقام العربية»[1].

والمستشرق "مونتجومري وات" هو أيضاً يُصرّح ممتنّاً للرياضي العربي الخوارزمي قائلاً: « وقد ألَّف الخوارزمي أيضا وصفاً للبقاع المأهولة من الأرض معتمداً في تأليفه على كتاب "بطليموس" في الجغرافيا، غير أنَّ مؤلفاته في الرياضيات كانت أهمّ شأناً من ناحية تأثيرها فأحد كتبه يُعتبر أساس علم الجبر، بل إنّ كلمة "Algebra" مشتقّة من اسم الكتاب، في حين كان كتاب آخر له_إن صرفنا النظر عن كتابات الهند_أول كتاب في علم الحساب يستخدم العلامات العشريّة التي نستخدمها نحن الآن، ألا وهي الأرقام التي نسمّيها بالأرقام العربية»[2].

وليس الخوارزمي فقط من أبدع في مجال الرياضيات فهناك العالم الشهير:_**أبو علي محمد بن الحسن البصري المعروف بابن الهيثم:(نحو430ه=نحو1038م)** وهو «من بين الرياضيين الذين ترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية... وهو عالم شهير بحق عرف باسم "Alhazen"، وقد استوعب كافة مؤلفات الإغريق والعلماء العرب في ميادين الرياضيات والطبيعة ممّن سبقوا عصره، ثم مضى قُدُماً لحلّ مسائل أخرى لم يحلّوها، وقد بقي لنا أكثر من خمسين من كتبه ومؤلفاته ورسائله، أشهرها "كتاب المناظر" الذي تُرجم إلى اللاتينية بعنوان "Opticae_thesaurus"، ومن بين ما تضمّنه هذا الكتاب من موضوعات كثيرة معارضته لنظرية إقليدس وبطليموس...كما ناقش ما يُعرف حتى اليوم بـ"مسألة ابن الهيثم" التي أوجد فيها حلّا لمعادلة من الدرجة الرابعة، وقد أجرى ابن الهيثم تجارب عديدة واشتغل على المرايا الكروية والقطعيّة المكافئة، وتمكَّنَ بعد دراسته لانكسار الضوء عند تخلّله لجسم شفّاف أن يقيس ارتفاع الغلاف الجوي للأرض، بل إنّه كان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف مبدأ العدسات المبكّرة»[3].

وكان من أعمال هذا العالم الجليل أن «ألّف كتاباً جمع فيه الأصول الهندسية والعددية وأدخل في الجبر والحساب طرقا جديدة في استخدام المسائل الحسابية من جهتي التحليل والتقدير العددي، وقام بتجارب على المرايا الكروية والمثلثة، وابتكر

[1] المرجع نفسه، ص68
[2] مونتجومري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص50
[3] المرجع السابق، ص50 ،51

طريقة صحيحة لإيجاد البؤر العددي، ونقل "روجر بيكون" نتائج هذه الدراسات إلى طلبة الغرب»[1].

وممّا جاء في فضل هذا العالم ما ذكره ولـ وَايريْل ديورانت، فقد «جاء في قصَّة الحضارة 275/13 "لولا بن الهيثم لما سمع النّاس قط بـ"روجر بيكون" وها هو ذا روجر بيكون نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات من"Maius Orus" دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه الجزء السادس من هذا المؤلّف يكاد كلّه يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعي ابن الهيثم»[2].

لقد ساهم هذا العالم الجليل بالكثير في عالم العلم والمعرفة، فقد «كان ابن الهيثم أبا المنهج العلمي لا "روجر بيكون" فالطريقة التجريبيّة العلميَّة، أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخرة، هدية ابن الهيثم للإنسانيّة، لقد خالف من سبقه في نظريَّة الرؤيا، فهو لم يسلّم بما كان سائداً في ذلك الوقت، بل شكَّ وبحث ونقد، فنادى: إنّ للضوء وجوداً ذاتياً، وتكلَّمَ عن الارتداد قبل "نيوتن" وهكذا استفاد ممّن تقدّمه وهذا أمر طبيعي، ولكنّه أتمَّ النقص ونقض الخطأ، ثم أبدع وألَّف وحدة مرتبطة الأجزاء وأقام صرحاً أثبت عليه صرح الضّوء من بعده، لذلك يقول "ول ديورانت" في كتابه "قصّة الحضارة": "لا مبالغة مهما قلنا في أثر ابن الهيثم في العلم في أوروبا" ويقول "سارتن" "إنّ ابن الهيثم هو أكبر عالم طبيعي من المسلمين، ومن أكبر المشتغلين بعلم البصريات والرياضيات والطّبيعة، كما علَّق على فلسفة أرسطو ومؤلّفات جالينوس»[3].

وعلى غرار هاذين العالمين فقد حفلت الحضارة العربية بعدد كبير من كبار الرياضيين الذين أبدعوا في علوم الرياضيات، ولولاهم لكانت الرياضيات الآن لا تزال في مهدها ومنهم «ثابت بن قرّة (ت901م) والبتاني(ت929م)، وعمر بن إبراهيم الخيّام(ت1132م) والخازن البصري، وأبو الوفاء البوزجاني، أمّا في المغرب الإسلامي فقد ظهر مسلمة المجريطي إمام الرياضيين بالأندلس(ت1007م)، والذي كان من تلاميذه ابن السمح(ت1034م) وابن الصفار، والكرماني، وأمية بن أبي الصلت وغيرهم»[4].

---

[1] أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص318

[2] شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص539

[3] المرجع السابق، ص540

[4] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص88

إنّ من الأشياء المُسلَّم بها في هذا المجال _وخاصّة خلال القرون الوسطى_ أنْ «احتلت الأرقام العربية بلاد الغرب، وقامت بدورها في العلوم والرياضة والاقتصاد على مرّ الأيام خير قيام»[1].

ب/انتقال علم الفلك:

يعتبر علم الفلك من العلوم القديمة عند العرب، بحكم الطبيعة التي أمضى فيها العربي كلّ سنين حياته، فقد حاول اكتشاف كل ما يحيط به وفي بعض الأحيان تفسيرها على حسب السليقة العربيّة، كما أنّ العربي كان شديد الإعجاب بالظواهر الفلكيّة، فكم شبّه العربي حبيبته بالبدر المنير والشمس الساطعة والقمر الأخآذ، فقد كانت هذه الرموز الأكثر جاذبية في عالمه الشعري، ولم يكن له غيرها ليعبّر بها عن سحر جمال المحبوبة.

وتصف المستشرقة "زيغريد هونكه" العلاقة الجميلة التي كانت تربط العربي بالظواهر الفلكيّة الرائعة قائلة: «وكم كان للنّجوم وأحاديثها وتنبؤاتها من تأثير كبير على حياة عرب الصّحراء، أكثر بكثير ممّا كان لها في حياة الإغريق أو الرومان أو الجرمان أو أيّ شعب آخر!! وأيّ عجب في هذا، وهم قوم رُحل في فضاء فسيح لا نهاية له قد اعتبروا، مُذْ أبصروا النور في هذا العالم حتى النهاية، أنّ قبة السماء هذه خيمتهم، قبّة زاد في تألقها هواء الصحراء الجاف وزيَّنتها النجوم اللوامع، فظهرت في حلّة لا أروع ولا أجمل، حلّة يجهلها من عاش في محيطات الشمال فيعجز عن تصوّرها، كما أنّه لم يكن حولهم من قريب ثابت يصوّبون إليه أبصارهم كلّما اخلدوا إلى وحدتهم في هدأة السكون: فلا جبل قائم هناك، ولا صخر نافر، ولا شجرة أو بحيرة أو صخب بحر، بل ثمَّة آفاق تمتد موغلة في البعد وحيدة، وقد مزّقها سراب خادع رافقهم أينما حلّوا في تنقلاتهم، ولم يكن أمامهم في وسط الصّحراء الرّتيبة وفي عُرض بحر الرّمال المتلاطم وكثبانه الجوَّالة إلاَّ بزوغ الشمس وغروبها وطلوع القمر وأفوله ومواضع النّجوم وسيرها، عماد يقيسون به وجودهم زمنياً ومكانياً»[2].

ومن خلال كل هذه العوامل الطبيعيّة المتراكمة «عرف عرب الجاهليّة مطالع النّجوم ومغاربها، وحدّدوا منازل القمر بين النّجوم بثمانية وعشرين منزلاً، أطلقوا عليها

[1] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص111
[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص115، 116

منازل القمر وأعطوا لكلّ منزل منها اسماً عربياً خالصاً، واستطاع العرب التنبؤ بحالة الطقس وتحديد الفصول بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معيّنة، وعرفوا ذلك باسم الأنواء، ولهم في ذلك أوصاف مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين، وقد جمعها الجغرافيون في كتب الأنواء(ابن خردازية والدنيوري)، وعرفوا كوكبي الزهرة وعطارد، كما عرفوا ما لا يَقلُّ عن 250 نجماً منها الجدي والسها والثّريّا والجوزاء، وبمداومة الملاحظة لتلك التغيّرات أمكنهم تقديرا الزمن وتوقيت الساعات ويُقال أنهم كانوا على دراية كافية بالتقويمين، القمري والشمسي»[1].

كانت هذه العوامل كلّها دافعاً للعرب للاهتمام بالأمور الفلكيّة قبل مجيء الإسلام، أمّا بعد بزوغ شمس الإسلام فقد كان «اهتمام المسلمين بتعيين القبلة التي يولون وجوههم شطرها أينما كانوا خمس مرّات كل يوم، حافزاً قوياً لهم للاهتمام بالفلك ودراسته دراسة سليمة، هذا إلى أنّ تَقدَّم المسلمين في العلوم الرياضية، فساعد على تفوّقهم في علم الفلك الذي عنوا به هو الآخر عناية عظيمة تدلّ عليها المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف أرجاء البلاد الإسلاميَّة، مثل مراصد سمرقند ودمشق والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة»[2].

تقدَّم العرب المسلمون في مجال علم الفلك تقدّماً ملحوظاً، حيث أنشأ العرب المراصد لرصد النجوم والقمر والشهب وغيرها من الظواهر الفلكيّة كظاهرة الكسوف والخسوف التي كان الغرب الأوروبي يحسبها في كثير من الأحيان غضباً من الآلهة، وهذا الفكر المحدود زرعته الكنيسة التي كان يسيطر عليها الوهم والخرافة طوال قرون عديدة مظلمة.

وعلى الضفّة الموازية للغرب الأوروبي _المتأخر في جميع المجالات وخاصّة المجال الفلكي_ «شهد عالم الإسلام ازدهاراً ملحوظاً في إقامة المراصد التي أخذت تزداد تطوراً بمرور الوقت وإليها يعود الفضل فيما بلغه علم الفلك لدى المسلمين، ويعدّ المرصدان اللذان بناهما المأمون في جبل "قاسيون" بدمشق وفي "الشماسية" ببغداد من المراصد المبكّرة، تلاهما في خلافة المأمون نفسه وبعد وفاته إنشاء العديد من المراصد في بلدان شتّى، كذلك الذي أقامه "بنو موسى" في بغداد، و"شرف الدولة" في بستان دار المملكة، والخليفة الحاكم الفاطمي في جبل "المقطم"، و"البتاني" و"ابن الشاطر"

[1] إبراهيم محمد أحمد البلولة: إسهامات العلماء المسلمين في تطوير علم الجغرافيا، دراسات دعوية، العدد7، يناير 2004، ص2
[2] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص91 ،92

في الشام، و"الدينوري" في أصفهان و"ألغ بك" في سمرقند، و"ملك شاه" في نيسابور، ويُعتبر مرصد "مراغه" الذي بناه "نصير الدين الطوسي" من أشهر المراصد وأكبرها وأكثرها إتقاناً في آلاته وعدد المشتغلين فيه»[1].

لقد كانت المراصد الفلكيّة المتقنة أكبر دليل على اهتمام العرب المسلمين بعلم الفلك ولهذا فقد «نبغ من فلكيّي المسلمين كثيرون من أبرزهم "أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (973م_1048م)، فقد كان فلكيًّا مرموقاً وعالماً جليلاً وهو ثالث الثلاثة (ابن سينا، ابن الهيثم، البيروني) الذين ازدهرت بهم الحضارة العربية الإسلامية، فدرس الفلك والرياضيات والطب والتاريخ، ومن أبرز مؤلفاته "الآثار الباقية من القرون الخالية"، وترجم إلى اللاتينية،كما ألّف كتاب "القانون المسعودي في الهيئة والنجوم"، وهو من أضخم مؤلفاته، وقام على البحث والترجمة الشخصية، وبلغ عدد مؤلفاته مائة وثمانين كتاباً ورسالة وترجمت إلى اللغات الأوربية ووضع ملخّصا للرياضة والفلك والتنجيم في كتابه "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم"»[2].

وبالإضافة إلى البيروني فقد «نبغ من الفلكيين محمد البتّاني ومحمد الفرغاني الذي قام بأبحاث في تحديد طول السنة تحديداً مضبوطاً، وابن يونس المصري الذي قام بأبحاث في كسوف الشمس وخسوف القمر والبوزجاني الذي وضع جداول فلكية، على أنّ أهم مؤلفات الفلكيين السابقين هو كتاب "الزيج الصابئ" للبتاني الذي كان له أثر كبير في علم الفلك في الشرق والغرب على السواء»[3].

وفي الوقت ذاته وفي الضفّة الموازية للشرق يوجد غرب متخلّف تماماً «فحتى القرن الثالث عشر ظلّ الرهبان بفرنسا يعتمدون طرائق الفلك الشعبي، كمنارات الرصد الفلكي المحلّية (Observational Markers)، التي يمكن محاذاتها بمواقع كوكبات معيّنة، لتُقابل أوقات صلاة معيّنة، يشرح نص كتب على لوح حجري، عثر عليه في دير "سيتريسيان قيلرز" بالقرب من "نامور ببلجيكا"، كيفيَّة تقدير الوقت بتتبّع الشمس والنّجوم كما تبدو في نوافذ معينة، لعل الأكثر شيوعا بين هذه الحالات كلّها كان تعيين راهب متقدم محترم يرتّل عدداً محدّداً من المزامير إشارة إلى مرور الوقت (Significator Horarum)، ثم يوقظ إخوته الرّهبان ليؤدوا صلاة منتصف الليل أو

[1] عماد الدين خليل: صفحات من حضارة الإسلام، كلّية التربية، ،دط، دت، جامعة الموصل، ص162.
[2] إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص92 ،93.
[3] المرجع نفسه، ص93.

الفجر التي تؤدى عند الساعة الثامنة لحلول الظلام والميزة الواضحة بهذا الحل أنّه كان يعمل حتى عندما تحجب الغيوم النجوم، لكنَّ الطريقة كانت من قلّة دقّتها أن اضطرّ اللاهوتيين إلى الاعتراف بأنّ الرهبان العاديين ما ينبغي تحميلهم مسؤولية فشل المؤذن في توقيت الصلاة التوقيت الصّحيح»[1].

وبينما كان الأوروبيون يجهلون أوقات الصلاة ومواعيدها، كانت الحضارة العربية قد ضبطت جميع أوقاتها، وتدارست حركة النّجوم والكواكب واختلاف الليل والنهار «ففي عصر الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون، صاغ العرب كل أسماء النجوم والكواكب لدى ترجمتهم لأعمال الفلكي الكبير "ابرخس" (Hipparch) ودليله المنقّح بقلم "بطليموس Ptolemaus"، مع عدم إغفال أسمائها القديمة التقليدية، الأمر الذي جعل لمعظم أسماء الكواكب الثابتة، فيما بعد، أسماء ذات مصدر عربي ك: "الغول Algol"، و"الكور Alkor"، و"الطير Attair"، و"الذنب Denab"، و"فم الحوت Famlhaut"، وغيرها ولم ينحصر الأمر بأسماء النّجوم فحسب، بل تعدّاها إلى الرموز الفلكية "Astronomische"، وأشكالها التي يعرفها الكل، "كالسمت Zenith" و"سموت الشمس Azimut" و"النظير Nadir" و"المقنطرات Almaqantarat" و"العضادة Alhidade" .... وبتشجيع من علم الفلك الهندي في كتاب "سندهند Sid hanta"، "لبراهما غوبتا Brahmagupta"، وعلم الفلك اليوناني، في كتاب المجسطي Almagest لبطليموس»[2].

لقد تطوَّر هذا العلم تطوّراً ملحوظاً وخاصّة وأنّ العرب قد انصرفوا «إلى الاهتمام الكلّي بهذا العلم وأصبحوا في قصور الخلفاء، المنصور وهارون الرشيد والمأمون خاصة يراقبون السماء وما دار في فلكها من نجوم مراقبة دقيقة علميّة، منطلقين به من مفهومه البدوي المحدود إلى آفاق واسعة جعلت منه ذاك العلم القائد في العالم لقرون عديدة»[3].

لقد كانت هذه نظرة خاطفة عن أهم العلوم التي ساهمت بها الحضارة العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي لتكون هذه العلوم العربية خير معين ونصير للغرب الأوروبي في نهضته الحديثة، ويوجد علوم كثيرة ومختلفة غير التي ذكرت، أفادت بها

[1] جوناثان ليونيز: بيت الحكمة، ص57
[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص118
[3] المرجع نفسه، ص118

الحضارة العربية الإسلامية الإنسانيّة جمعاء كعلم الكيمياء والتاريخ والجغرافيا والصناعة والزراعة كلّها مجالات ساهمت الحضارة الإسلامية بكل ما تملك في إنماءها والرقيّ بها.

هذا ولم يكن التأثير مقتصراً على العلوم وحدها بل تعدّاها إلى مختلف الفنون والآداب، التي شكّلت كما العلوم نقلة نوعيّة في الفكر الغربي، وأحدثت به ثورة فكريّة غير مسبوقة، وسنعرض في الفصل الموالي أهمّ هذه التأثيرات الأدبية، التي تركتها الآداب العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي.

الفصل الثالث:

التأثير الأدبي والنقدي.

_**المبحث الأول**: تأثير الشعر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط

_**المبحث الثاني**: تأثير النثر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط

لقد شَكَّل الأدب بكل معانيه وخاصّة الشعر في حياة العرب _قبل الإسلام وحتى بعده_ الديوان الوحيد الذي يدوّنون فيه أخبارهم وحياتهم وأيامهم، فقد كان الشعر من مقومات الفحولة عند العربيّ موازاةً مع الشجاعة والفروسيّة والكرم... وغيرها من الصّفات النبيلة التي لازمت العربي منذ نشأته الأولى حتى نهاية العصر العباسي، وقد انتقلت هذه المقومات مع الفتوحات الإسلامية في شبه الجزيرة العربية بادئ الأمر، ثم انتقلت إلى غيرها من الأقطار المفتوحة من قبل الخلفاء الراشدين، وصولاً بهذه الفتوحات الإسلامية المجيدة إلى أوروبا وخاصّة في شبه الجزيرة الإيبيرية أو ما سمّاه العرب المسلمون بعد ذلك بالأندلس.

فالعرب المسلمون حينما دخلوا الأندلس كانوا على درجة رفيعة من العلم والأدب، فالإنسان العربي منذ نشأته الأولى قد نشأ على نظم الشعر، الذي كان يمثّل قبل الإسلامي وحتى بعده ديوان العرب الوحيد ومنه تَربَّى العربي على النظم والإيقاع الرتيب، حتى قيل أنَّ العرب قديماً لم تكن تتخاطب إلاّ شعراً، ولم يكن النثر ظاهراً حتى مجيء الإسلام حيث جَمَع القرآن الكريم بين الجنسين الأدبيين الشعر والنثر، وتَطوَّر النثر العربي مع الفتوحات الإسلاميّة حيث لجأ الفاتحون لكتابة الرسائل إلى غيرهم من الأقوام لدعوتهم إلى الدّخول في الإسلام، وبعد وفاة الرسول_صلّى الله عليه وسلّم_ظهر رواة الحديث عن الرسول الكريم، كما اضْطرَّ الخلفاء الراشدون إلى جمع القرآن خشيّةً عليه من دخول اللحن فيه وخوفا عليه من النسيان، وكان هذا العمل بداية جيّدة ساهمت بشكل كبير في حفظ مفردات اللغة العربية بشكل خاص، والتراث العربي الإسلامي بشكل عام، كما كانت هذه الخطوة انطلاقة مميّزة للتأليف، سواءً فيما تعلّق بالمواضيع التي تدور حول القرآن الكريم أوالسنة النبوية الشريفة، أو ما تعلّق بغيرهما من المسائل التي كانت تشغل بال المسلمين سواء في المجال العقائدي أو غيره من المجالات.

هذا وقد كانت الآداب في الإسلام بمعنى الخلق الحسن والسلوك الحميد، ومنه الحديث الشريف "أدَّبني ربي فأحسن تأديبي"، وقد توسَّع مدلول هذه الكلمة مع الزمن، ويقول «ابن خلدون في حدّ الأدب "هذا العلم لا موضوع له يُنظَر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنّما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتهُ، وهي الإجادة

في فنَّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملَكةُ، من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقة يَستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب ليُفهم بِهِ ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذِكر المهِمّ من الأنساب الشهيرة، والأخبار العامة، والمقصود بذلك كلّه أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفّحه... ثم إنهم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطَرَف»[1].

لقد انتقل حب العرب المسلمين للآدب معهم حيثما حلّوا وأينما ارتحلوا، فقد كان العربي يُعرف بما تحويه جعبته من الآداب شعراً كان أم نثراً ، وقد كان العرب يُعرَفون بمؤلفاتهم وكتبهم التي يألفونها على حب وقناعة، وكانت المؤلفات تُعبِّر كذلك عن أصحابها، كالمفضَّليات للمفضل الضَبِّي، والأَصمَعيَّات للأصمعي وفي الجاهليّة كان الشاعر ذا مكانة مميّزة حتى ولو كان من العبيد، وأكبر مثال على ذلك "عنترة بن شداد العبسي" الذي نقله شعره وشجاعته من عبد ذليل إلى شاعر ذي رأي ومشورة في قبيلته.

هذا وقد اهتمّ العرب بالشعر بالرغم من الظروف غير الملائمة التي كانت تمليها الطبيعة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية «فلم يحدث أبداً أن استطاعت أمّة على ظهر البسيطة أن تبدع شعراً في مناخ غير ملائم كما فعل العرب، آكام مرمّلة قاحلة وسراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاء لم يجده شيئاً، وجبال صخرية ينمو في شقوقها العوسج ونباتات أخرى قليلة، وترتوي على شحّ بندى الليل، ونادراً ما تجد نُهيراً يجري هنا أو هناك، فترى أشجار النخيل، وبعض الأعشاب العطرية، وشيئاً من الحشائش الخضراء، ثم الأعاصير التي

[1] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، الجزء1، مراجعة وضبط: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، المنصورة، مصر، دت، ص24 .

تثير زوابع الرمال، والشمس ترسل أشعتها حارقة ملتهبة وأحياناً تتغيّر هذه الرّتابة الحزينة عندما يُدوّي الرعد ويهطل وابل انتظره الناس طويلاً، أو عندما تلمع نجمة سهيل والثريّا عمودية، في قبة سماء صافية زرقاء»[1].

ومع هذه البيئة الصعبة والقاسية استطاع العربي أن ينظم شعراً، يُعبِّر من خلاله عن كلّ ما يختلج ذاته من مشاعر وأحاسيس، ومع أنّه كان شِعراً ارتجالياً نابعاً من السليقة العربية البسيطة، إلاَّ أنَّه استطاع أن يمتد عبر عصور سحيقة من الزمن، وأن يثبت أمام التغيّرات التي فرضتها عوامل عديدة، فمع ظهور الدين الإسلامي بقي الشعر على ما هو عليه مع شيء من التهذيب في ألفاظه وأغراضه، كما ظهر النثر أيضاً كنوع أدبي له معاييره التي تحدّده وتفصله عن بقيّة الأجناس الأدبية الأخرى كالمقامات والخطب والرسائل الديوانيّة، وأَخَذَ النثر يَتطوَّر وينمو مع الفتوحات الإسلاميّة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، حيث اختلط العرب بغيرهم من الأقوام والأمم، فقد بلغ العرب في العصر الأموي إلى جنوب اسبانيا(الأندلس) ففتحوها، وصارت خلال حكمهم أرقى البلدان ثقافة وحضارة، وتصف المستشرقة "لوثي لوبيث بارالت" هذه الحضارة العربية الإسلاميّة قائلة: «"وأيًّا كان حظّ هذه الحضارة من الازدهار أو التدهور فإنّها كانت هي الحضارة الباهرة التي فتحت شبه الجزيرة الايبيريّة واستوطنتها، ومن الصعب أن نفكّر في أنّها لم تترك آثاراً عند مرورها، لقد تولّت الخلافة في دمشق إدارة الأندلس في البداية، لكنّها أخذت وضعها بوصفها إقليماً حتى إنّها لم تتأخر كثيراً في الحصول على استقلالها، ذلك أنّ عبد الرحمان الأول "الداخل" قد هرب إلى شبه الجزيرة عند انتقال الخلافة من الأمويين في دمشق إلى العباسيين في بغداد وأقام بها أول إمارة مستقلّة وأسس القواعد من أجل الثقافة العظمى التي أُنشِئت في إسبانيا الإسلامية؛ وقد استمرت الدولة التي أسسها هذا الأموي المثقف ما يقرب عن ثلاثة قرون، أمّا خليفته عبد الرحمان الثالث(الناصر)(912_961م)، فهو

[1] فون شاك: الشعر العربي في اسبانيا وصقلية، تر: الطاهر أحمد مكّي، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، الجزء1، القاهرة، 1419هـ/1999م، ص15

الذي أعلن الخلافة في قرطبة وجعلها منافسة لبغداد وللقسطنطينية وواحدة من أكثر المدن ثقافة وقوة في أوروبا»[1].

هذا وقد كان الحُكَّام الأمويون في الأندلس ابتداءً من عبد الرحمان الداخل وانتهاءً بهشام الثاني بن الحكم(366_399هـ)، على درجة رفيعة من العلم والأدب، كما ساعدوا على نشر الثقافة العربيّة الإسلاميّة في أوروبا من خلال حبّهم للعلم وتسامحهم المنقطع النظير، وتصف المستشرقة "زيغريد هونكه" هذا قائلة: «لقد أقبل العرب على اقتناء الكتب إقبالاً منقطع النظير، يشبه إلى حدّ كبير شغف الناس في عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون، بعد الدمار الذي أصابهم إبّان الحرب العالمية فحرمهم طويلاً من متع الحياة، فأصبحت الكتب هي مطلب كلّ من يستطيع تحمّل نفقات الحصول عليها وأقبل الناس في البلدان العربية على اقتنائها، بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلاً، فكما يُقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً، قدَّر الناس_في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر_ الثراء بمدى ما يُقتنى من كتب أو مخطوطات، ولم يكن الخليفة، بتشجيع من وزرائه من البرامكة، ليهدي الجماهير هدية تتَّفِق مع مزاجهم أجمل من إنشائه مكتبة ضخمة في بغداد عرفت بدار الحكمة»[2].

لقد ساهم الأدب العربي الرفيع _بنوعيه الشعري والنثري_ في الأدب الأوروبي خلال القرون الوسطى خاصّة وأنَّ «الغرب ولا سيما غرب أوروبا لم يعرف من فنون الأدب قبل احتكاكه بالعرب غير القصص الخرافيّة والملاحم الأسطورية، ففي الشمال تغنى الشعراء المنشدون والجوّالون بالمنظومات القصصيّة الاسكندنافية المنسوجة من خيوط الأوهام والخرافات، ولم تتغيّر هذه الحال إلاّ عندما خطفت الحضارة الأندلسية أنظار أمراء الجنوب الفرنسي وخلبت ألبابهم وأشعرتهم بتأخّرهم فراحوا يأخذون بأسباب الرقيّ الحضاري ويحيطون أنفسهم بمظاهره، ويحاولون احتذاء العرب في كلّ حركة وفي كلّ مظهر، وقد هيَّأ ذلك لهم

[1] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص42، 43

[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص385

أن يتذوّقوا الأدب العربي، وراحوا يحاكون العرب في أدبهم، وجاء شعر التروبادور نتاجاً لهذا التأثّر بالأدب الأندلسي»[1].

فكما أثَّرت الحضارة العربية الإسلاميّة بشتى العلوم في النهضة العلميّة في أوروبا ومن خلالها إلى العالم أجمع، فقد أثّرت كذلك في المجال الأدبي للفكر الأوروبي فأخرجته من غياهب الخرافات والأساطير، ليأخذ في الأخير شكله الحضاري بين الآدب العالميّة، فقد كان للأدب والشعر حضور قوي في بيئة الأندلس لدرجة أنَّ "جوته" الألماني ألَّف ديواناً خاصاً يعبّر فيه عن إعجابه الشديد بالشعر العربي سمّاه "الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي"، ترجمه عن الألمانيّة الدكتور "عبد الرحمان بدوي"، وفيه يعبّر "جوته" عن ولعه بالشرق ورغبته الشديدة في أن يظلّ الشرق والغرب متّصلان ببعضهما البعض، يشكّلان معاً عالما فريداً يُأثِّر ويَتأثّر أحدهما بالآخر بشكل إيجابي، حيث يقول :

«الغرب والشرق على السواء

يُقدِّمان إليك أشياء طاهرة للتذوّق

فدع الأهواء، ودع القشرة

واجلس في المأدبة الحافلة:

وما ينبغي لك، ولا عابراً

أن تنأى بجانبك عن هذا الطعام»[2].

ويتّضح من عنوان الديوان الذي جمع فيه "جوته" بين الشرق والغرب أيضاً حُبَّه للشرق وآدابه، التي هاجر من أجلها من ألمانيا إلى الهند لينهل من مناهل الحضارة العربية الإسلاميّة وآدابها هناك.

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، ص155 ،156

[2] جوته: الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي، تر: عبد الرحمن بدوي، دط، دت، ص338 ،339

هذا وقد انقسم هذا التأثير الأدبي في الحضارة الأوروبية إلى قسمين اثنين: التأثير الشعري، والتأثير النثري.

أ_التأثير الشعري: نظراً لكون الشعر هو الأسبق أدبياً وتاريخياً عند العرب، سواء من حيث الوجود أو الأهمّية، لدرجة كان الاستغناء عنه قبل الإسلام شبه مستحيل، لأنّه نابع عن ذات لطالما جعلت الشعر وسيلة لكلّ أغراضها حبّها وكرهها، هجائها ومدحها، وغزلها بمحاسنها، ووسيلة للتواصل مع غيرها من القبائل وأداةً لحماية نفسها من قدحهم وهجائهم، فإنّ الشعر قد لزم الإنسان العربي أينما وجد أو ارتحل وتذكر المصادر أنّ «المعتمد بن عباد ملك أشبيلية في عصر الطوائف(1040_1095م) كان يملأ نهر الوادي الكبير بالأضواء عندما كان يعقد مسابقات الشعر والموسيقى في مراكب تقطع النهر وعليها جذوات مشتعلات»[1].

وهذه الصورة الجميلة تعبّر عن مدى شغف الأمراء والخلفاء العرب بالشعر، وعدم تخليهم عنه، كونه جزء لا يتجأ من الهويّة العربية التي سكنت بلاد الأندلس لمدّة بلغت الثمانية قرون من الزّمن، ازدهرت خلالها جميع فروع المعرفة الإنسانية العلمية منها والأدبية.

ب_التأثير النثري: لقد كان حظّ النثر العربي في التأثير في الأدب الأوروبي أكبر من حظّ الشعر، رغم اهتمام الأمراء والخلفاء العرب به واحتفاءهم به في مجالسهم، وهذا راجع لارتباط النثر بمختلف المعارف التي انتقلت من الشرق إلى الغرب، مثل الفلسفة والفلك والطب ...وغيرها.

وفي هذا الصدد تقول المستشرقة "لوثي لوبيث بارالت" واصفة هذا التأثير في المجالين الشعري والنثري_النابع أساساً من الحضارة العربية الإسلاميّة_: «وبالنسبة للأدب، فعلى نحو ما كان منتظراً، نجد أنّه مرّ بمرحلة ازدهار خاصة في الإمبراطورية الإسلامية، فقد ظهرت أنواع شعرية جديدة مثل السلطانيات أو

[1] لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ص46

قصائد المدح السياسي، وقصائد الغزل التي سوف يقلّدها "فيديريكو جارثيا لوركا" في القرن العشرين وقصائد التغنّي بالنبيذ أو الخمريات، والأبيات الصوفية الرقيقة لشعراء الفرس مثل الرومي وحافظ، والمقامات التي كانت تقوم على حكايات الصعاليك، حيث يقوم بطل المقامة بمجموعة من المغامرات (ربطت ماريا روساليدا بين مقامات الحريري وبين كتاب "الحب المحمود" لكاهن إيتا)، وثمّة بعض دارسي الإسبانيات الذين يرون أنّ قصص الصعاليك في إسبانيا بها أَثرٌ من هؤلاء الصعاليك المسلمين الظرفاء، أمّا قصص "ألف ليلة وليلة" ذات الأصل الفارسي، فقد أخذت طابعاً عربياً وأصبحت تعبّر عن الروح الشعبي، وهي تعكس بصدق العظمة التي كانت عليها بغداد»[1].

وانطلاقاً من ذلك وللتفصيل أكثر في تأثير الأدب العربي الإسلامي في الأدب الغربي سأتعرَّض في هذا الفصل إلى مبحثين اثنين هما على الترتيب: أ/ تأثير الشعر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط

ب/ تأثير النثر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط

[1] المرجع السابق، ص41

1_تأثير الشعر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط :

يُعد الشعر عند العرب ديوانهم الوحيد، ولا غنى لهم عنه، كونه جزءً مهماً في حياتهم اليوميّة، فقد كان العرب في الجاهليّة لا يتخاطبون إلاّ شعراً، ومكانة الشاعر في القبيلة موّقرة جداً، فقد كان الشاعر يعدّ اللّسان الناطق باسم قبيلته، وإليه يُوكّل أمر الدفاع عنها شعراً بين القبائل المجاورة، فقد جاء في باب "احتماء القبائل بشعرائها" أنْ «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويَتبَاشر الرجال والولدان لأنّ الشاعر حماية لأعراضهم، فهو يَذُبُّ عن أحسابهم، ويُخلِّيد مآثرهم، ويُشيد بذكرهم، وكانوا لا يُهنِّئون إلاَّ بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج»[1].

وقد جاء في باب "من رفعه الشعر ومن وضعه" أَنَّ الشعر «يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل، وإنّه أسنى مروءة الدَّنِيِّ، وأَدنَى مروءة السَّرِيِّ، لأمر ظاهر غاب عن بعض الناس فتأوله أشدّ التأويل، وظنه مثلبة وهو منقبة، وذلك أن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مُدح به مثل ما يَضَع من قدر الشريف إذا اتّخذه مكسباً... أي من صنع الشعر فصاحة ولسنا، وافتخاراً بنفسه وحسبه، وتخليداً لمآثر قومه، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة، ولا مدحاً ولا هجاءً»[2].

هذا وقد كان الشعر عند العرب في الجاهليّة الأولى، نابعا عن الفطرة والسجيّة، كما أنّه ظلّ لزمن غير بعيد تعبيراً خالصاً عن الواقع المعيش، وتصويراً للطبيعة العربية القاحلة، ولهذا فقد «بدأ شيوع الشعر بين العرب أبياتاً متفرّقة تأتي عفواً، وليدة اللحظة وروايات الشعر الجاهلي ودواوينه مليئة بهذه الشواهد، من مقطوعات موزونة تدور حول معنى ذاتي خالص، أوحت بها هذه المناسبة أو تلك، وقد تكون مشاعر

[1] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دط، دت، ص31 ،32

[2] المصدر السابق، ص15

وأفكار أوحى بها موقف ما، فجاءت تعبيراً عنه في أشكال بسيطة وخفيفة، أو مجرّد حِكَمْ مسجوعة فحسب»[1].

ومع مجيء الإسلام تهذّبت الألفاظ والموضوعات، وصار الشعر وسيلة للدّفاع عن الدين الإسلامي الحنيف، فشاع غرض المدح للرسول الكريم، وشعر الحكمة والإصلاح والإرشاد، ودخلت في الشعر مفاهيم فلسفية جديدة مستمدّة من الفلسفة اليونانية والإغريقية، كون العرب قد تَرجموا أغلب مؤلفاتها، كما أنّ الطبيعة الجديدة التي انتقل إليها الشعر العربي، وخاصّة بيئة الأندلس الزاهية، قد أثّرت أشد التأثير في نفوس الشعراء العرب، فأبدعوا أحسن الشعر وأعذبه.

هذا وقد انتقل حبّ العرب للشعر معهم إلى البلاد المفتوحة، وتقول هونكه في هذا الشأن، «وكان للشعر الذي هو للعربي بمثابة الماء والهواء، حظّ كبير في الأندلس وكان الأمراء أنفسهم شعراء ممتازين»[2].

لقد ازدهر الشعر في الأندلس وتطّور تطوّرا ملحوظاً، لكنَّ المصادر التي تتحدّث عن هذا التأثير نادرة جداً وخاصة الأوروبية منها، ويقول المستشرق الألماني "أدولف فريدريتش فون شاك" في هذا الشأن: «ومن المؤكد أنّ كتب التاريخ عندنا تتحدّث عن الازدهار الذي بلغه فن الشعر، فضلاً عن بقية العلوم الأخرى بين الإسبان المسلمين، ومن المؤكد أيضاً أنَّ هناك كتباً أخرى تتحدث منذ زمن في تأكيدات غائمة، ومعرفة عميقة بالأحداث عن التأثير الخصب الذي مارسه الشعر العربي الإسباني في بقيّة أوربا، ولكن عبثاً نحاول أن نجد في أيّة لغة أوربية حديثة خبراً عن هذا الشعر نفسه، فضلا عن التعمّق في معرفته، والحق أنّنا أمام أدب شعري عظيم، فتَن بقوّة شعباً قوياً في ذكائه، وثريّاً في ثقافته المتوهجة، وامتدت شهرته من المحيط حتى آخر الشرق الأقصى، ولكنّه اختفى نهائياً كما لم يحدث يوما في التاريخ أبداً»[3].

---

[1] فون شاك: الشعر العربي في اسبانيا وصقلّية، ص16

[2] زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص502

[3] فون شاك: الشعر العربي في إسبانيا وصقلّية، ص9 ،10

ومع هذا إلاَّ أنّه كان هناك «جماعة من المستشرقين المتخصّصين في الدّراسات العربيّة والأندلسية ومن هؤلاء "خوليان ريبيرا، وآنخل بالنثيا، وآسين بالاثيوس، وجارثيا جوميث"، فضلاً عن كوكبة من المعاصرين... وقد أدّت دراسات هؤلاء وغيرهم... إلى تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة التي كانت شائعة، وعلى سبيل المثال، فقد كانت النظريّة الذائعة عن أصول الشعر الغنائي الأوروبي ترجعه إلى الشعر البروفنسالي[1]... الذي ظهر أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، على يد شعراء أمثال "جيوم التاسع"، وكان الرأي السائد هو ما عبَّر عنه الناقد الفرنسي "جان روا" بقوله: "جاء الشعر البروفنسالي منذ نشأته بعيداً عن أيّ تأثير أجنبي لقد انبثق فجأة، كزهرة انشقَّت عنها الأرض بلا ساق ولا جذور"، ولكنّ "خوليان ريبيرا" بدأ بطرح نظرية تأثير الموشّحات والأزجال الأندلسية على ظهور الشعر الغنائي الأوروبي، ثم جاء العلماء من بعده مثل "بيدال وآنخل بالنثيا، وجارثيا جوميث"، وأخذوا يطوّرون هذه النظريّة ويزيدون في الشواهد والبراهين التي تؤكّد صدقها حتى استقرّت الآن كنظريّة معترف بها، وأصبحت تغذّي كل الأبحاث التي تكتب في هذا المجال»[2].

إنّ الامتزاج بين الشعر العربي والشعر الأوروبي في إسبانيا خلال العصر الوسيط قد أنتج شعراً جديداً ذا معان جديدة، وكان ذلك في المنطقة الواقعة جنوب فرنسا التي كان يقصر فيها تذوّق الأدب والفن بسبب النظام الإقطاعي المستبد، الذي حَرَم العامة من التمتّع بكافة حقوقهم، فيما عدا طبقة النبلاء منهم والرهبان، ولهذا مال الشعب الفرنسي إلى الشعر العربي في الأندلس، كونه يعبّر عن أحساسيهم ومشاعرهم ويعبّر عن ذواتهم التي لطالما أُحتُقِرت من طرف السلطة الحاكمة، ومنه ظهر شعر "التروبادور" في منطقة "بروفانس" الفرنسية، ويقول الكاتب الفرنسي "روبير بريغو": «بينما بدأت قصص الفروسية الأجنبية المثيرة للمشاعر تلوح في أوروبا خلال القرون الوسطى، وأخذت الأساطير السلتية الملهبة للخيال تستنشق أولى أنفاسها، ازدهر في جنوب فرنسا شكل أدبي أجنبي هو أيضاً عن الأدب الأوروبي التقليدي، وهبت في كلّ

[1]* نسبة إلى "بروفنس" وهي منطقة كانت تقع بين فرنسا وإسبانيا، وهي حالياً تابعة للجمهورية الفرنسية.

[2] ينظر لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الاسباني، ص14،15

مكان نفحات إلهام غنائي جديد، فنقلت الخصب إلى اللغات المحلية العامية التي كانت وقتذاك في بدء تكوّنها، وانتشرت في إقليم "بروفانس" أشعار عاطفيّة ذات معان منتقاة، وصياغة مدروسة متقنة، فتجاوبت مع الحالة الفكريّة لمجتمع إقطاعي بدأ ينشدُ متعة فراغ مُزدان بالظرف والبهجة، بعدما استشف أبهة الشرقيين في إسبانيا، وتأثر بسموّ مشاعرهم وفطن عندئذ لخشونة البربرية، وقد أمدَّت هذه المنظومات العاطفية الغنائية شعراء الشبيبة بنماذج أدبية، تردد صداها في شعر ذلك العصر، وأغاني المنشدين المتجولين في الشمال، وهي التي انبعثت بعد حين لآلئ ذلك الشعر الإيطالي الذي أيقظ دوّيه أوروبا بأسرها وبعث حتى في ألمانيا بشائر تقليد أدبي جديد»[1].

لقد ساهم الشعر العربي بشكل كبير في النهوض بالشعر الأوروبي، فظهر شعر البروفانس والتروبادور من خلال احتكاك الغرب بالشعر العربي في الأندلس، حيث كان الخلفاء لا يستغنون عنه في مجالسهم، كما اشتهر أيضاً شعر التغنّي بالنبيذ وهو امتداد لخمريات أبي نواس في المشرق.

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص146

2_تأثير النثر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط:

لقد انتقل النثر مع العرب إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، فأثّر فيهم أشد تأثير، إذْ تذكر الأخبار أنَّ كثيراً من الأجناس النثريّة التي عرفتها الأندلس (إسبانيا حالياً) خلال فترة الحكم العربي الإسلامي، نشأ من تأثير بعض الأعمال النثريّة الوافدة من المشرق، وهذا ما دفع الكتّاب الأوروبيين المعاصرين للبحث فيه، وتبيان أثره فقد «كان للمستعرب الشهير "آسين بلاثيوس"(1871_1944م) دور كبير في التعريف بتراث العرب العظيم في الأندلس، وهو صاحب أول دراسة عن تأثير بعض المصادر الإسلامية مثل "رسالة الغفران وقصّة المعراج" على "الكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالي دانتي، وفي مجال الفكر والتصوّف قدَّمَ دراسات بارزة مثل كتابه الضخم عن "الإسلام في أرض مسيحيّة"، دراسة للصوفيّة من خلال أعمال ابن عربي المرسي...فضلاً عن دراساته الأخرى الكثيرة عن المفاهيم الخاطئة التي اعترفت بفضل العرب في تطوير الفكر الإنساني»[1].

لقد احتكّ النثر الأوروبي بالنثر العربي فنشأ عن هذا الاحتكاك أشكال نثريّة أوروبيّة عديدة، تحاكي في شكلها أو مضمونها الأعمال الأدبية النثرية العربية، وأهمّ الأشكال النثريّة العربية التي أثّرت في الأدب الغربي هي القصص العربية من مثل قصص "ألف ليلة وليلة" وقصص"كليلة ودمنة" لابن المقفع، وقصّة "حي بن يقظان" لابن طفيل، فقد ظهرت مجموعة أعمال قصصية في أوروبا تشبه هذه القصَصْ العربية منذ منتصف القرن 12م، واستمرّت حتى القرن 14م.

ومن خلال هذه القصص العربية استطاع الغرب الأوروبي أن يخرج بفكره من بوتقة الجمود، وأن يسمو بآدابه سموّ الآداب العربية في تلك الفترة، ولهذا فقد «وقعت على الأدب العربي مسؤوليّة تغيير ذوق الأوروبيين في ذلك الوقت، كما وقعت على العلوم العربية مسؤوليّة تغيير عقليتهم الأوربية، وساهمت في ذلك

[1] المرجع السابق، ص15

فلسفة اليونان التي كان للعرب فضل نقلها إلى الأوروبيين، فنفروا من الأسلوب الأدبي الطنان بعد أن تذوّقوا الرقيق الجميل، ورفضوا التغيير الخرافي بعد أن أصبحوا أوسع إحاطة بأسراره»[1].

وعلى غرار أعمال أولئك المستعربين الغربيين المنصفين فقد سعى بعض النقّاد والمفكرين العرب أمثال: العقّاد في كتابه "أثر العرب في الحضارة الأوربية"، وعبد الرحمان بدوي" في كتابه "دور العرب في تكوين الفكر الأوربي"، وصلاح فضل في كتابه "تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي"، وكتاب مكارم العمري "مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي"، كلّها أعمال عبّرت عن انتقال الآداب العربية الإسلاميّة إلى الغرب الأوروبي، وقد كانت «الأندلس تُعدُّ الجسر الذي عبرت _من خلاله_ الكثير من المظاهر الأدبية الأندلسية إلى أوروبا في العصور الوسطى، ويتفق مؤرخو الأدب الأوروبي عامّة على التأثير الحاسم الذي أحدثه الأدب الأندلسي في تطور القصة الأوروبية في العصر الوسيط، وقد تلقى الأدب العربي كثيراً من القصص الشرقية من الهند وفارس ونقلها بدوره إلى الأدب الأوروبي، وكان "بدرو ألفونسو" في طليعة القرن الثاني عشر أول من نشر في العالم المسيحي عدداً كبيراً من المجموعات القصصيّة التي تقوم موضوعاتها حول الأمثال والحكم والمواعظ»[2].

ومن أهم القصص التي اشتهرت في الأدب العربي الإسلامي، وحَاكَ الغرب على منوالها أقاصيصهم هي «المجموعة القصصيّة التي يتضمّنها كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه "ابن المقفع" عام757، من البهلوية إلى العربية، ولقد ترجم هذا الكتاب إلى القشتالية عام1261م، بأمر الملك "ألفونسو الحكيم" ثم ترجم إلى العبرية في القرن الثالث عشر ونقله "خوان دي كابوا" بعد ذلك إلى اللاتينية وعرف هذا الكتاب من هذه الترجمة اللاتينية وفي لغات مختلفة كالألمانية والدانماركية والإيطالية والإسبانية»[3].

[1] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص156

[2] المرجع نفسه، ص157

[3] المرجع نفسه، ص158

وبالإضافة إلى قصص كليلة ودمنة فقد أثَّرت "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، في الفن القصصي الأوروبي وخاصّة في الكوميديا الإلهية ل"دانتي"، وبهذا فقد كان «الأثر الأدبي الإسلامي الأكبر الذي صاغ ملحمة المعراج أوائل القرن الحادي عشر الميلادي هو "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري التي تعدّ من أنضج نماذج الثقافة العربية، إذْ لو طبَّقنا عليها المعيار النقدي المعترف به الآن عالميًّا عن الأعمال التي توصف بأنّها كلاسيكية_لا تلك التي تنتمي إلى مذهب الكلاسيكية الأوربي المعهود وإنّما تلك التي تمثّل عنصراً فاعلاً في تراثها وتعدّ من عيونه_لوجدنا أن شرطي هذا الوصف هما: توفُّر النضج الأدبي واللغوي والأخلاق للأمّة التي ينهض فيها كاتب كلاسيكي من ناحية، وضرورة ارتكازه على عصور أدبية سابقة من ناحية أخرى، وإذا طبّقنا هذا المعيار على المعرّي لوجدناه كاتباً عربياً كلاسيكياً من الطّراز الأول»[1].

وفي هاذين الأدبين تماثل غريب يكاد في بعض الأحيان يكون تطابقاً، «فإذا أخذنا في المقاربة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية وجدنا أنّنا أمام رحلة للعالم الآخر، تتميّز بخلوّها من عناصر الخوارق والمعجزات التي تحفل بها روايات الإسراء والمعراج عادة، فباستثناء الفكرة الأساسية للرحلة_التي تقع في نطاق المعجزات_تمضي الحوادث بعد ذلك على نسق أقرب ما يكون إلى منطق الحياة المألوفة، فالمسافر عند أبي العلاء ليس نبياً ولا ولياً من كبار الأبطال، ولكنّه مجرد إنسان عادي يقترف الذنوب ويَسعى في الأرض مثلُه في ذلك مثل دانتي بطل الكوميديا الإلهية، كما أنّ الشخصيات التي تقوم بالأدوار الثانوية الأخرى ليست في معظمها من الأنبياء ولا الأولياء والقديسين، وإنّما هم أناس عاديون منهم المؤمن والكافر، مثل الذين نجدهم أيضاً عند الشاعر الإيطالي، وعلى هذا فإنّ الخاصيّة الإنسانيّة للواقعة الأرضية في الكوميديا الإلهية تجد سابقتها الأدبيّة الكبرى عند الشاعر المعري العربي»[2].

لقد أثّرت رسالة الغفران لأبي علاء المعري كثيراً في كوميديّة دانتي الإلهية، والجدير بالذكر أنّ رسالة الغفران لم تأتي من العدم، كون المعري عربي مسلم فقد استلهم رسالته من معجزة الرسول_صلّى الله عليه

[1] صلاح فضل: تأثير الثقافة الإسلاميّة في الكوميديا الإلهية لدانتي، دار الشروق، ط3، القاهرة، مصر، 1406هـ/1986م، ص72

[2] المرجع نفسه، ص72 ،73

وسلم_وهي "الإسراء والمعراج" حيث عرّج بالرسول إلى السماء السابعة، وفي الرسالة أحداث كثيرة تُحيل على هذا التأثّر العميق، كما وقد كان للغة العربية أثر كبير «فقد أصابت اللغة العربية وآدابها من النضج قبله قدراً عظيماً جعله شغوفاً بهما حريصاً عليماً، وكان هذا ما حدا به إلى وضع رسالة الغفران كنموذج فنّي يستفيد من إطار الرحلة إلى الحياة الآخرة، ليُقدِّم فيضاً من البحوث اللغويّة والأدبيّة التي كانت شغله الشاغل في هذا الأثر، كما أنّ تعدد العصور السابقة عليه، وقدرته على تمثّلها، ومحاولة تجاوزها مع الفهم العميق لتراثها...كلّ هذا قد أتاح له فرصة كبرى لتأصيل نظراته في لغة الأدب وابتداع أطر جديدة أثْرَت الثقافة العربية بقدر ما جدّدت من أنسجتها وأضافت إلى محصّلتها»[1].

ومع هذا التشابه بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهيّة، إلاّ أنّ البعض يرى أنّ دانتي نفسه قد « كان متأثّراً جداً بمعراج "ابن عربي" الفيلسوف الصوفي الأندلسي المسلم، وهذا أقرب إلى موافقة المنطق العلمي وسبب ذلك يعود إلى أنّ كتب ابن عربي الأندلسي تُرجمت إلى اللاتينيّة وانتقلت من إسبانيا إلى إيطاليا مثلما انتقل كثير من كتب العرب الفلسفية والأدبيّة وغيرها»[2].

هذا ولم تكن "رسالة الغفران" لأبي العلاء وحدها من أثّرت في الآداب الأوروبية، فقد كان هناك كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي أثّر في الأدب الإسباني، وهي مجموعة قصص خياليّة مجهولة المؤلف، إلاّ أن البعض يظنّ أن أصولها فارسية، ويظنّ البعض الآخر أنها مجموعة من القصص متفرّقة ولا بلد محدد لها، وقد راجت في إسبانيا أشكال أدبية تحاكي قصص "ألف ليلة وليلة"، خلال القرن العاشر الميلادي، «ومما يدلّ على أنّ كتاب "ألف ليلة وليلة" كان شائعاً في الأندلس في العصر الإسلامي أنّ المورسكيين سجّلوا بعض قصصه بلغة "الخميادو" التي كانوا يكتبون بها، ومن هذه القصص قصّة "قصر الذهب" و"مدينة أفلاطون"، كما يمكن اليوم تعقّب أثر قصص "شهرزاد" في اللغة الإسبانيّة، ففي قصّة "الغيور العجوز" التي كتبها "سرفانتس"

[1] المرجع السابق، ص72

[2] خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، ص159

تجد الموضوع نفسه الذي نُسجت حوله قصّة "القاضي وابنة التاجر"، وفي الأسطورة الشعبيّة التي أوحت إلى "ثوريليا" بذكرياته في مدينة "بلد الوليد" شبه كبير بقصّة تدور حول "عدالة السماء"»[1].

ولم يكن تأثير كتاب "ألف ليلة وليلة" وقفاً على القصص الإسبانيّة فقط، وإنّما لهذا الكتاب صدىً في مختلف القصص الأوروبيّة، ففي فرنسا مثلاً قد «جاءت ترجمة "غالان" لألف ليلة وليلة، فكانت شيئاً مثيراً غريباً ومسرّاً، فيها انفتحت أبواب الرومانس الشهيّة غير المحدودة، وعجّت باريس بالأقاصيص الجديدة، كان ذلك نصراً شبيهاً بالذي حقّقته روايات "ويفرلي" ل "وولتر سكوت"...ولم يبتعد "ريشارد بيرتون" عن هذا التفسير، فكتب موضّحاً:"الذي ضمن لليالي نجاحها المميّز هو ذلك البهو الخيالي، وعجب الخوارق وعظمة المشاهد وروعتها، وحيث إنّها كانت خارجة على التقليد الأدبي، وخالية من أيّة غاية وعظيّة أو تعليميّة أثارت جمهور القُرَّاء وأَسَرتهُ»[2].

تُعبِّر المصادر الغربيّة بإطناب عن مدى تَأثُّر الأوروبيين بالكتب والقصص والحكايات الجديدة عنهم ومدى إعجابهم بها لكنّهم يغفلون أو يتغافلون أنّ هذه القَصَص جاءت من إبداع العرب المسلمين في الشرق وانتقلت عبر شبه الجزيرة الإيبيريّة إلى أوروبا، وعبر جزيرة صقلّية إلى إيطاليا، إلاّ أن أثر هذه القصص والحكايات كان بارزاً في القصص الأوروبية، وانتشر بعد ذلك في العالم كلّه، وعلى سبيل المثال فإنَّ «الطبعات العديدة بالإنكليزية من ألف ليلة وليلة والنُسخ التي لا تُحصى من الموجزات والقصص المعدّة من معين شهرزاد لا توفّر غير دليل واحد على نجاح الحكايات، ولا يقلّ قيمة عن هذا الدليل رد فعل الكاتب والناشر المعروف "Addison"، فكمرآة لأذواق ورغبات قرائِه سقط "أديسون" تحت وطأة سحر الشرق

[1] المرجع السابق، ص159

[2] محسن جاسم الموسوي: ألف ليلة وليلة، في نظريّة الأدب الإنكليزي، منشورات مركز الإنماء القومي، دط، بيروت، لبنان، 1703هـ/ 1910م، ص18.

مندفعاً لنشر عدد من الحكايات في مجلته الذائعة "Spectator"، محقّقاً بذلك إضافة جديدة واحدة إلى ذخيرة رواية مجلاّت القرن الثامن عشر، أي الحكاية الشرقيّة»[1].

وهذه واحدة من الترجمات في الآداب الغربيّة للآداب النثريّة العربية، والتي تعبّر عن مدى تأثير سحر الآداب الشرقيّة على الغرب الأوروبي، كما أثّرت الآداب العربية الإسلاميّة في القارة الآسيوية خلال القرن التاسع عشر وخاصّة في الأدب الروسي، حيث كان تطوّره مرهوناً بتفاعل الآداب الشرقيّة والغربيّة والتأثير والتأثّر الحاصل فيما بينهما، فقد «حظيت التأثيرات الشرقية في الأدب الروسي بمكانة واضحة، وقد كان للتأثير العربي والإسلامي حظّه بين هذه التأثيرات الشرقيّة وقد أسهم في ذلك عوامل كثيرة منها موقع روسيا المجاور جغرافيا للشرق، ووجود شعوب شرقيّة تحت الحكم الروسي جعلت من الشرق موطئا قريبا بالنسبة للأدباء الروس، فضلا عن وجود قنوات(وسائط) تقليدية عبرت من خلالها مفردات الحضارة العربيّة الإسلامية على امتداد قرون طويلة، وبلغت قمّة هذا العبور في بداية القرن التاسع عشر في فترة ازدهار حركة الاستشراق في روسيا»[2].

ومن أهم التأثيرات الشرقيّة في الأدب الروسي «تبرز رائعة الأدب العربي "ألف ليلة وليلة" كأحد الثّمار اليانعة للحضارة العربية الإسلاميّة، فقد خرج هذا الأثر الثقافي الكبير شاهداً على حركة الحضارة العربية ومرآة صادقة للحياة العربية خلال قرون ستة، وقد خضعت "ألف ليلة وليلة" لمؤثّر الحضارة الإسلاميّة، وأبرز ما في تلك الحضارة الدين، والكتاب كلّه قوى في روحه الإسلامي»[3].

لقد استوحت هذه القصص الأسطوريّة أو الخياليّة روحها من الدين الإسلامي أو من حياة النبيّ محمد_صلّى الله عليه وسلّم_ بالإضافة إلى نمط الحياة العربية المميّز، فكانت هذه القصص أثراً لشعب كان قويّاً في زمن مضى، وانتشرت إبداعاته ومنجزاته في العالم أجمع، وبذلك كادت «"ألف ليلة وليلة" أن تكون

---

[1] المرجع السابق، ص19

[2] مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، دط، الكويت ،نوفمبر1991، ص241

[3] المرجع نفسه، ص74

أشهر مؤلف عربي أثار خيال الشعراء الأوربيين بعامّة والرومانتيكيين بخاصّة، ومنهم الشاعر "بوشكين" الذي انعكس تأثّره "بألف ليلة وليلة" في أكثر من مؤلّف مثل: "روسلان ولودميلا" و"ليال مصريّة" و"اندجيلو" وقصيدتي "القمر يتألق" و"التعويذة"، ورغم مكانة تأثير "ألف ليلة وليلة" على إنتاج بوشكين لم يحظ هذا الموضوع بدراسة تعني بجوانبه المتعدّدة»[1].

ومن أهمّ الرموز العربيّة الدّالة على العدالة في الحكم والتي استقاها "بوشكين" في كتاباته، هي شخصيّة الخليفة هارون الرشيد، «فعن قصص الليالي يستقي بوشكين تصوّره عن شخصيّة الخليفة العربي هارون الرّشيد، الذي يستوقف اهتمام "بوشكين" بصفته رمزاً إنسانياً كانت له بصمته المميّزة في مسيرة الحضارة العربيّة، ويظهر اهتمام "بوشكين" بسيرة الخليفة هارون الرّشيد جلياً، فقد كان يتابع هذه السيرة أينما سنحت له الفرصة، فقد أشير إلى زيارة "بوشكين" لأحد مسارح "بطرسبرج" لمشاهدة مسرحيّة عن حياة الخليفة "هارون الرّشيد"... ويبدو أنّ "بوشكين" قد استرعى اهتمامه في شخصيّة هارون الرشيد سمة المعايشة لمشاكل الشعب التي وجد فيها تجسيداً للعلاقة المثاليّة بين السلطة والشعب، ونموذجاً مضيئاً للسلوك القويم بين الحاكم والشعب، ولهذا فإنّ "بوشكين" يقتبس هذا الأسلوب المميّز لشخصيّة الحاكم "هارون الرّشيد" ويخلعه على شخصيّة الحاكم الإيطالي في قصّته "اندجيلو"»[2]

ومن خلال هذا يتّضح لنا أنّ التأثّر بالحضارة والآداب العربية بلغ حدّ التمثّل للشخصيات العربية في الكتابات الأدبية الأوروبيّة وغيرها من الآداب في مختلف قارات المعمورة، وأهم مثال على ذلك شخصيّة الخليفة "هارون الرّشيد" التي كانت تمثّل العلاقة التي تربط السلطة بالشعب والحدود الفاصلة بينهما، وقد كانت شخصيّة الرّشيد أهم مثل للحاكم العادل، فصارت طُرُقه في الحكم قدوة يصوّرها الغرب في كتاباتهم.

هذا وقد «كان لتأثير التراث العربي في الأدب الغربي الأثر البارز والصدى الواسع في عصر النهضة وما قبله، إذْ لا يمكن لأيّ دارس أن ينكر فضل هذا الأخير في التطوّر الحاصل فيما بعد على مستوى الأدب

[1] مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، ص75

[2] المرجع نفسه ،ص47

الأوربي، ولا سيما فيما يخص الترجمات من العربيّة إلى اللاتينيّة والأوربيّة بالخصوص منها ما كان في الأدب الاسباني، والتي قام بها ثلّة من العلماء والأدباء والدارسين، تأثّروا أيّما تأثير بأدب العرب وتراثهم، فعندما تكون هناك نصوص أصيلة عربيّة، وترجمات أوروبيّة، ثم أعمال مقلّدة واقتباسات مستمدّة من تلك الترجمات...فإنّ التأثير العربي يتّضح بجلاء ولا يستطيع أيّ مؤرّخ محترم للأدب أن يجازف بتجاهله»[1].

لقد ساهمت الترجمة بشكل كبير في نقل الأشكال الأدبيّة العربية إلى الغرب الأوروبي، وقد ازدهرت هذه الحركة خلال القرن التاسع عشر، فقد «كان مفعول هذه الترجمات على أوربا وحتى أمريكا وغيرها من دول العالم وقاراته كالسحر، بدءاً من القرن التاسع عشر لذلك نجد الكثير من الأدباء والدّارسين الأوربيين قد أخذوا عن العربيّة إن لم نقل قد استعاروا منها بعض الأنواع الأدبيّة وطوّعوها لما يخدم أدبهم الأوربي فشكّلوا وأنتجوا، بل أبدعوا مؤلّفات جديدة أو قد تكون أصيلة ولا أدَلَّ على ذلك من قصّة "حي بن يقضان" ل"ابن طفيل" في التراث العربي الإسلامي وقصّة "روبنسون كروزو" ل"دانيال ديفو" (1660_1731)، هذه التجربة الذّاتية في الإيمان والتي تجمع بين البطلين... فبعد الاطّلاع على النص العربي ل"ابن طفيل" أُعتمد فيما بعد مرجعاً أساساً ومن هناك صاحبه اهتمام واسع بالأدب العربي وتراثه فبعد أن ترجم إلى الإنجليزية أسهمت هذه الترجمة في النضج الفكري للمذهب البروتيستانتي الأوربي وفقاً لما يقوله "نيكولاس ريشير"1967، فقد كان النصّ العربي بمثابة حركة دفع للإيديولوجيا الدينيّة الفلسفيّة التي تأسست عليها حركة التقوية Pietism الإنجليزية في القرن السابع»[2].

لقد ساهمت قصة "حي بن يقضان" في نهضة الفكر الغربي، كما ساعدته على الخروج من بوتقة الحكم الكنسي، ودعته إلى التدبّر في المخلوقات، وأنّ العقل هو المرشد الوحيد لوجود الله، كما دعت إلى

[1] باية كاهيّة: التأثيرات العربيّة في الأدب الغربي في ضوء الأدب المقارن، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد8، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر،2010، ص250

[2] المرجع نفسه، ص250، 251

إعمال العقل البشري، وإخراجه من الجمود الفكري، والبحث عن الذات الإلهية من خلال التفكير والتحليل والاستنباط.

لقد كانت هذه هي أهم المصادر التي أثّرت في الفكر الغربي، خلال العصور الوسطى وما بعدها، وقد بقيت هذه القصص والحكايات إلى زمن غير بعيد الركيزة الأساسية التي استلهم منها الغرب الأوروبي أعمالهم الفكريّة وكانت لهم خير مرشد وخير دليل.

نأمل في الأخير أن تعود الحضارة لتلامس الفكر العربي، كما كانت عليه في شبه الجزيرة الإيبيرية ويعود الفردوس المفقود إلى العقول والأذهان وأن ينير طريق العرب المسلمين، لتشرق شمسهم وتسطع على الغرب من جديد.

خاتمة

ومن خلال دراستنا لموضوع: "**التثاقف الأدبي والنقدي بين العرب والغرب خلال العصر الوسيط (قراءة في المرجعيّات والوسائط)**"، توصّلنا إلى إبراز أهمّ الجوانب التي ظهرت من خلالها الحضارة العربية الإسلاميّة كقوّة حضارية خلال القرون الوسطى، وقد تطرّقنا في ذلك إلى أهمّ التأثيرات الحاصلة بين الحضارة العربية الإسلامية والغرب الأوروبي، في زمن ساد فيه التخلّف بكل أشكاله ومعانيه في القارة الأوروبية، ولهذا فقد كانت الحضارة العربية الإسلاميّة خير منقذ لها من الضياع، وقد أَبرَزَتْ بِذلك دَورَها الفعَّال في بناء النهضة الأوروبيّة الحديثة، وقد أقرَّ بذلك ثلّة من خيرة الكتّاب الأوروبيين المستشرقين، رادّين من خلال كتاباتهم جزءً من الدَّين الذي عليهم وعلى آبائهم وعلى حضارتهم التي اتّسمت بالمادّية البراغماتية، الرافضة في كبرياء زائف الاعتراف بفضل الحضارة العربية الإسلاميّة عليها.

وعلى ضوء ما تعرّضنا له بين طيَّات هذا البحث المتواضع نَخْلُصُ إلى تسجيل جملة من النتائج هي على النحو الآتي:

_ تعتبر الثقافة _شِئنا أم أَبينا_من الركائز الأساسية للنهوض بأيّ أمّة من الأمم، كما ويشكّل تزايد معدّل الثقافة ونقصانه لدى شعوب معيّنة، عاملاً مهمًّا في زيادة أو نقصان ترتيبها في سلّم الدّول المتقدّمة.

_ تعتبر عمليَّة التثاقف من الضرورات الحتميّة التي لا غنىً عنها للشعوب والأمم، فهي دعوة إلى تبادل المعارف والخبرات في جميع ميادين الحياة، من خلال عمليّة التفاعل والتأثير المتبادل، بشكل يضمن لِكِلا الطرفين الفائدة المرجوّة، دون المساس بالهويّة الشخصيّة، وهذا ما تمثّله المثاقفة الحقّة.

_ لقد كان للحضارة العربية الإسلامية دور فعَّال في خلق الحوار بين الثقافات والحضارات المختلفة، وقد سعت في ذلك إلى إنتاج ثقافة جديدة متكاملة، ناتجة عن المزج بين هذه الثقافات، وقد كانت هذه الحضارة العربية الإسلامية خير مثال للمثاقفة الهادفة، فقد انفتحت على شعوب غير الشعوب العربية وأثّرت فيها وتأثرت بها، وخلقت من ذلك المزيج حضارة شامخة دامت أكثر من ثمانية قرون من الزمن.

_ يُعدُّ مبدأ الانفتاح والتعارف مبدأً من مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، فالحضارة العربية الإسلاميّة ارتكزت في جميع أمورها على مصدرين أساسيين هما: القرآن الكريم والسّنة النبويّة الشريفة.

_ تعتبر الفتوحات الإسلاميّة من أهم الدوافع التي شجّعت العرب المسلمين على اجتياز البحار والمحيطات للوصول إلى القارة الأوروبية، فشكلّوا في الأندلس إمبراطورية عربية إسلاميّة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، دامت هذه الإمبراطورية ثمانية قرون من الزمن، وكان هذا الفتح عسكريّا بادئ الأمر، لكن سرعان ما تحوّل إلى فتح حضاري وثقافي كبيرين.

_ لقد عبرت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا عن طريق ثلاثة معابر رئيسية ابتداءً من المشرق العربي من الشام والعراق مروراً بجزيرة صقلّية (جنوب إيطاليا) وصولاً إلى الأندلس (إسبانيا حالياً) والتي تعتبر مركز الحضارة العربية الإسلامية التي دام بريقها ثمان مائة سنة متتالية.

_ لقد ساهمت هذه المعابر بشكل فعّال في عبور كلّ أشكال الرّقي والازدهار من الشرق العربي الإسلامي الذي مثّلته بلاد العراق والشام _التي شهدت خلال العصر الأموي والعباسي تطوراً ملحوظاً على جميع الأصعدة_ إلى الغرب الأوروبي الذي كان يغطّ في نفس الآونة في جهل وضلال وظلام.

_ لم يقتصر التأثير العربي الإسلامي في الغرب الأوروبي على الجوانب العامة من الحياة الاجتماعية بل تعدّاه إلى التأثير العلمي، فقد أفاد الغرب كثيراً من العلماء المسلمين، في شتى العلوم وجعلوهم قدوة يحتذون بها في طريقهم نحو التقدّم.

_ أمّا فيما يخص الجانب الأدبي، فقد ساهم الشعر العربي القديم في إبراز أنماط شعرية أندلسية جديدة مثل: شعر الموشّحات والزجل وشعر التروبادور، وهذه الأشعار لا تزال تشهد في إسبانيا على أنّ العرب المسلمين مرّوا من هناك وتركوا آثاراً لا تمحى.

ـ ومن الشعر إلى النثر، فقد شكّلت الأقاصيص العربية نوراً أضاء في عتمةِ ليل مظلِم بيوت الشعوب الأوروبية، فأصبحت هي الحديث الأول والأخير للأوروبيين، فقصص ألف ليلة وليلة التي لا تنتهي وكليلة ودمنة ورسائل الغفران...وغيرها، أدهشت الغرب بسحرها وخيالها الأخآذ.

لقد كانت هذه أهمّ المحطَّات التي تناولناها في بحثنا هذا راجين من الله ـسبحانه وتعالىـ أن يفيد هذا البحث ولو بالقليل في تبيان حقّ الحضارة العربية وفضلها في بناء النهضة الأوروبية الحديثة، والهدف الأسمى من كلّ هذا ليس أن نقرأ التاريخ بكلّ تفاصيله دون الإفادة منه، وأن نقف مكتوفي الأيدي لنبكي ماضينا التليد، وإنّما الفضل في أن نسعى جاهدين لتعود حضارتنا وثقافتنا ومجدنا إلى ما كانت عليه قبل هذا بل أفضل وهذاـبعون اللهـ لن يكون من المستحيل، إذا تضافرت لذلك الجهود ورفعت لأجله الهمم.

ـانتهى بحمد الله ونعونهـ

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم، برواية حفص.

_المصادر:

1- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دط،دب، دت.
2- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط8، بيروت، 1413ه/1997م.

المراجع:

01- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمّان الأردن،1997.
02- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل، ط1، 1989 بيروت، لبنان.
03- إبراهيم محمد أحمد البلولة: إسهامات العلماء المسلمين في تطوير علم الجغرافيا، دراسات دعوية العدد7، يناير 2004.
04- أحمد علي المَلَّا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر للطباعة والنشر، ط2، دمشق سوريا، 1401ه/1981م.
05- إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض 1418ه/1997م.
06- بوعلام إقلولي: المثاقفة و المنهج في النقد العربي الحديث، جامعة مولود معمري، تيزي وزو
07- جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج، قسم العلوم الإجتماعية، محاضرات السنة الأولى علوم إجتماعية: مدخل إلى الفلسفة العامّة، 2016،2017.
08- جمال نجيب التلاوي: المثاقفة (عبد الصبور وإليوت... دراسة عبر حضارية)، تر: ماهر مهدي وحنان الشريف، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2005.
09- جوته: الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي، تر: عبد الرحمن بدوي، دط، دب،دت.

10- جوناثان ليونز: بيت الحكمة (كيف أسَّسَ العرب لحضارة الغرب)، مركز البابطين للترجمة مع الدار العربية للعلوم "ناشرون"، دط، الكويت، دت.
11- خالد بن محمد مبارك القاسمي: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، الدار الثقافية للنشر، ط1 القاهرة، مصر، 1429ه/2008م.
12- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، ط1 بنغازي، ليبيا، يناير 2000.
13- دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: د.منير السعيداني، مراجعة: د.الطاهر لبيب المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، مارس 2007.
14- رمضان الصّباغ: العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ط1، الاسكندرية، مصر، 1999م.
15- زكيّة بالناصر القعود:أثر علم الطب الإسلامي على الطب في أوروبا، المجلّة الليبية العالمية، العدد8، جامعة بنغازي كلّية التربية المرج، يوليو 2016.
16- سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع ، ط1، الرياض، السعودية، 1431ه/2010م.
17- شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دط، دمشق سوريا، 1996.
18- صلاح فضل: تأثير الثقافة الإسلاميّة في الكوميديا الإلهية لدانتي، دار الشروق، ط3، القاهرة، مصر 1406ه/1986م.
19- عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط،دب 1997.
20- عبد العزيز بن عثمان التويجري: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ط2، 1436ه/2005م.
21- عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الإصدار1، دب، دت.

22- علي المنتصر الكتاني: انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان 1426ه/2005م.
23- علي بن إبراهيم النملة: النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط3، الرياض 1427ه/2006م.
24- عماد الدين خليل: صفحات من حضارة الإسلام، كلّية التربية، ،دط، دت، جامعة الموصل.
25- عمر فرّوخ: الحضارة الإسلامية وقسط العرب فيها، دار لبنان للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان 1400ه/1970م.
26- غوستاف لوبون: حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، القاهرة مصر، دت.
27- فون شاك: الشعر العربي في اسبانيا وصقلية، تر: الطاهر أحمد مكّي، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، الجزء1، القاهرة، 1419ه/1999م.
28- لوثي لوبيث بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، تر:حامد يوسف أبو أحمد وآخرون، مركز الحضارة العربية، ط1، القاهرة، مصر، 2000.
29- مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، وزارة الثقافة والفنون والتراث، مجلَّة الدوحة، قطر، دت.
30- محسن جاسم الموسوي: ألف ليلة وليلة، في نظريّة الأدب الإنكليزي، منشورات مركز الإنماء القومي دط، بيروت، لبنان، 1703ه/ 1910م.
31- مرتضى المطهَّري: الفلسفة، ترجمة: حسن علي الهاشمي، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 بيروت، لبنان، 1432ه/2011م.
32- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، الجزء1، مراجعة وضبط: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، المنصورة، مصر، دت.
33- مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، دط، الكويت، نوفمبر1991.
34- مونتجومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، دار الشروق، ط1 بيروت و القاهرة، 1403ه/1983م.

35- ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة، تر:زكي نجيب محمود، تقديم:محي الدين صابر،دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت، وجامعة الدول العربية بتونس، الجزء1، المجلّد1.
36- يوهان فوك: الدراسات العربية في أوربا حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة: سعيد حسن بحيري ومحسن الدمرداش، ط1، القاهرة، مصر، 2006.

_المجلاَّت:

01- باية كاهيّة: التأثيرات العربيّة في الأدب الغربي في ضوء الأدب المقارن، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد8، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2010.
02- توفيق سلطان اليوزبكي: الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا، ثقافتنا للدراسات والبحوث المجلد5، العدد20، 1431ه/2010م.
03- رواء نعاس محمد: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي لعربي ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العدد 3, 4، المجلد7، 2008.
04- مفتاح محمد عمر البكوش: المثاقفة والأيدلوجية العصرية في لقاء الحضارات، مجلةُ Nova للقراء العرب جامعة UKM، العدد2، 2014/1/7.

_الرسائل والمذكرات الجامعيّة:

01- عدنان محمد زين سومي: رسالة دكتوراه في الدراسات العربية والحضارة الإسلامية، موسومة ب: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا، قسم اللغة العربية، جامعة جالا الإسلامية.

_المواقع الإلكترونية:

01- http: //www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=8201&id=182&sid=183&ssid=184&sssid=185 رفع بتاريخ: 2018/05/03
02- https://ar.m.wipedia.arg/wiki/%D8%B5%D9%82%D9%84%D9%8A%D8%A9

الفهرس

الفهرس

بسمـــــــــــــلة

الدعاء

شكر وعرفان.

إهـــــــــــــداء.

مـــــقدمة:...أ

المدخـــــــل

المدخل: علاقات التأثر والتأثير بين الثقافات والشعوب.............................06

الفصــــــل الأول

الفصل الأول: المعابر الكبرى لانتقال حضارة العرب المسلمين إلى الغرب...............18

المبحث الأول: معبر الشام والعراق..27

المبحث الثاني:معبر جزيرة صقلية جنوب إيطاليا................................37

المبحث الثالث: معبر الأندلس(إسبانيا).......................................47

الفصــــــل الثاني

الفصل الثاني: التأثيرات العامة وانتقال المعارف المختلفة...............................60

*المبحث الأول: انتقال الفلسفة الطب..70

المطلب الأول: انتقال الفلسفة..70

المطلب الثاني: انتقال الطب..82

*المبحث الثاني: انتقال الرياضيات وعلم الفلك...................................91

المطلب الأول: انتقال الرياضيات..91

المطلب الثاني: انتقال علم الفلك..100

الفصـــــــل الثالث

الفصل الثاني: التأثير الأدبي والنقدي.....106

***المبحث الأول: تأثير الشعر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط**.....113

***المبحث الثاني: تأثير النثر العربي في أوروبا خلال العصر الوسيط**.....117

خاتمة:.....127

قائمة المصادر والمراجع:.....131